

زهرة القمر
رواية
فدوى الشوّاف
دار ليلى

زهرة القمر

رواية

فدوى الشواف

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:
زهرة القمر
المؤلف:
فدوى الشواف
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-12 شارع أحمد عرابي-الدور 3-مكتب 8
هاتف: 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com **الموقع الرسمي:** www.darlila.com

فدوى الشواف

زهرة القمر



إلى خالد..

وكل خالد

في تلك الزاوية المطلة على شارعٍ عامرٍ بالحركة والنشاط يقف خالد متابعاً المارة بعينيه بينما يسبح فكره في ماضٍ بعيد. يتـذكر أيـام حزيـران وليالـيـه حين كان يستعد لتقديم امتحانات الثانوية العامة. كان خلال أوقات دراسته يفضل الجلوس تحت واحدة من أشجار الزيتون الكبيرة المحيطـة بالبيـت، حيث يحتمي من الحرارة وصـخب أطفـال الحـي الـذين يـستمتعون بعطلـة الصيف. والدته الرحيمة كانت تـزوده باسـتمرار بكـأس كـبيرة مـن الـشاي بنكهة النعناع الذي لم يكن ليستغني عنه رغم حرارة الجـو. مـرات عديـدة كان يقوم ليضع رأسه تحت صـنبور ميـاه مثبـت في زاويـة قريبـة ليـستعيد نشاطه وتركيزه. كانت والدتـه تـدعوه لتنـاول طعـام الغـداء ولم يكـن خالـد ليتهرب منه لأن والده كان يحب اجتماع العائلة ساعة الغـداء وهـو لم يكـن ليتأخر لو قامت والدته بطهي أحد الأصناف الـتي يحبهـا كالملوخيـة وورق العنب. بعد الغداء يقضي الجميع وقت القيلولة في المنزل بينما يعود خالد إلى شجرته المفضلة. كان مثابراً حريصاً على التفوق لرغبته في الالتحاق بجامعـة عريقة يتمكن فيها من دراسة الاقتصاد والتضلع فيـه. مـلأت والدتـه البيـت بالزغاريد حين أُعلنت نتائج الثانوية العامة وقد حضر الجميع من كل صوب لتهنئته على تفوقه. قضى خالد الوقت التـالي لإعـلان النتـائج في التحـضير للسفر والتفكير في المستقبل لكنه كان كثير القلق لأنـه سـيترك أهلـه وبيتـه ووطنه ويغادر إلى المجهول مع حداثـة سنّه. خلفـه سـيترك محبـة الأهـل وتعاون الجيران وتواصل الناس، الربيع المعتدل والصيف الحار الذي تزينـه

نسمات الهواء محملة بذرات البخار عند مرورها على البحر. سيترك أخته التي يحب، كان بينهما فرق في السن كبير، ذلك أن والدته بعد إنجابه لم ترزق بأطفال لمدة قد تزيد عن العشر سنوات. جاءت بعدها سلمى التي لم تكن تتجاوز الخامسة حين قرر السفر.

طبعاً يجب أن يتذكر ذلك اليوم بأحداثه الكئيبة حين تحدث مع والده عن رغبته في دراسة الاقتصاد فعلق قائلاً: «ولم الاقتصاد؟! أنت حصلت على معدل يدخلك بدون شك كلية الطب!» أجابه خالد بأن الكثيرين يدرسون الطب لأنهم يرغبون بذلك بينما هو لديه رغبة في فهم الاقتصاد، نظرية وتطبيقًا لأهداف سامية يتمنى تحقيقها. فرد والده: «لكني أريد لك أن تحمل لقب دكتور»، فأجابه مسرعًا: «أعدك به يا أبي. سأكمل دراستي حتى أحصل على درجة الدكتوراة، سأكون دكتورًا في الاقتصاد». لم يرق ذلك الكلام لأبيه وظلَّ عند رأيه وكان خالد كذلك مصرًّا على رغبته لذلك لدى مغادرته كان وداع والده له باردًا مما أثر كثيراً في نفسه. كانت السنوات الأولى عصيبة، كان وقته مقسماً بين الدراسة وتعلم اللغة والعمل وأداء متطلبات المسكن ولم يكن ليستطيع الاتصال بأهله إلا للضرورة القصوى. رغم أنه كان يكتوي بنار الغربة والشوق لهم إلا أنه كان إن اتصل بهم يتحدث في الغالب إلى والدته يخبرها أنه بخير وتخبره هي أنهم بخير، يوصيها بإيصال السلام ويودعها على وعد أن يكلمها قريباً. كان يتحدث قليلاً مع والده بشكل روتيني وسريع وأحياناً مع سلمى بطفولتها اللذيذة. وهكذا

مر عامٌ بعد عام اعتاد فيها البعد والغربة وشغلته دراسته -وفيما بعد عمله- إلا أن المهم أن والده كان قد تغير وأصبح متقبلاً لتخصصه خصوصاً مع كثرة ثناء الناس عليه وعلى تربيته مما أشعر والده بالفخر فنسي الطب والاطباء. الشخص الذي لم يكن خالد ليتوانى عن محادثته هو رفيق عمره، زياد، كان خير معين له على الغربة يذكره دومًا بما هو واجب وما هو خير ويوصيه أن يحفظ نفسه ويبتعد عن مغريات الحياة حيث يقيم.

أعاد خالد من غياهب ذكرياته صوت رنين الهاتف، كان صديقًا عربيًا يسأله إن كان أنهى حزم أمتعته وعرض عليه المساعدة لإنهاء أي مهام طارئة في اللحظات الأخيرة كما ذكره بالحفلة التي يقيمها الاصدقاء في المساء لوداعه.

في الرابعة من مساء اليوم التالي كانت الطائرة التي يستقلها تحلق على بعد ساعتين من أرض الوطن. غادره في تموز ويعود إليه في مثله لكن بفاصل اثني عشر عامًا قضاها بعيدًا، غريباً، مكافحاً. كان شعور خالد خليطاً من فرح مشوب برهبة وأمل يبارزه يأس لكن ما لا يستطيع أن ينكره هو أنّ الشوق يكاد يقتله.

* * *

شمس تموز الحارقة أشعلت فتيلها منذ الصباح الباكر لتصل ذروة حرارتها في هذه الساعة من بعد الظهيرة. تخفف الرجال إلى حد كبير

من الملابس بينما استقرت النساء على الابيض والفاتح من الألوان لتخفيف الشعور بحرارة الشمس ورغم ذلك لازال العرق يتصبب بغزارة من جباههم. كانت كيان قد قررت العودة من عملها باكراً لتمر بمكتبة المدينة وقد توقفت بسبب الزحام، وفي ذلك الطقس الحار تكاد تشعر بالاختناق. مرّ بها طفل صغير يبيع زجاجات مياه، أشعث الشعر مغبر الوجه لكن لا يخلو وجهه رغم ذلك من لمحة جمال. «يا إلهي لك في كل شيء حكمة لكن الظالمون جاوزوا حد الاحتمال ما ذنب هذا الصغير؟ لِمَ لا يجلس في غرفته يستذكر دروسه ويفكر في غدٍ مشرق؟ لِمَ يتكبد هذا العناء وهو ما زال صغيراً حتى على الحلم؟ »

نظرت اليه كيان بعين الشفقة بينما هو ببراءة الطفل يحاول أن يستشف من نظراتها اليه ان كانت ستشتري منه زجاجة ماء أم ستنهره ليبتعد كما يفعل الآخرون. أفاقت على سؤاله:

- هل ستشترين زجاجة ماء سيدتي؟

فسألته بدورها:

- ماذا يعمل والدك؟

ورأت دمعةً وُلدت لتغشّي تلك الأحداق الملونة لكنه جاهد ليبتلعها حتى لا تخدش كرامته، هو رجل والرجل يبكي فقط لأمر جلِل، أليس كذلك؟ .. أجابها بخفوت:

- لقد رحل والدي في الحرب الأخيرة يا سيدتي

«أيُّ حرب؟ من الإرهاب أم على الإرهاب؟»

أخذت منه زجاجة الماء وانطلقت بسيارتها وعقلها يتساءل كم من عقلٍ أُهدر في وطنهم؟ كم قلب أُجبر على التلوث؟ أطفال كُثُر يقدّمون كلَّ الخدمات الممكنة ويبدو أنهم على استعدادٍ لبيع ما يملكون من الامل لو أمكن لهم ذلك!

دون أن تشعر وجدت نفسها تقف بسيارتها أمام المكتبة، كان كلها يحترق من حر الشمس ومن الغضب معاً. كانت قد قرأت مؤخراً عن مميزات النظام الاقتصادي الإسلامي وأرادت دراسة دقيقة للفروق بينه وبين النظم الأخرى كالاشتراكية والرأسمالية، كانت كيان تبحث عن كتاب بعينه واهتدت إلى الجناح الذي يتواجد فيه. انشغلت بالبحث عن الكتاب وتتبع الأرقام إلى أن وجدته فهتفت:

- جيد، ها أنت ذا!

- لا أعتقد أنكِ كنت تبحثين عني؟

خرجت هذه الجملة من شفتي رجل على الطرف الآخر لرف الكتب مما جعلها تحدّث نفسها بصبر نافذ: «هذا ما كان ينقصني»

- لا .. قصدت الكتاب

قالت بهدوء وأشارت به نحوه

- «النظام الاقتصادي الإسلامي يخضع لمعايير أخلاقية» سيدة عن الاقتصاد؟!

قالها مصحوبة بابتسامة وعلامة تعجب كبيرة مرسومة على ملامحه فأجابته محافظة على هدوئها:

- لم أسمع بقانونٍ يجرّم امرأة تقرأ في موضوعات علم الاقتصاد أو تدرسه!

- وأنا لم أقصد ذلك

قال مبتسماً بينما تشاغلت هي بتقليب صفحات الكتاب مما جعله يستمر في طريقه دون أيّة إضافات.

استعارت الكتاب وتوجهت إلى البيت لتنعم بمساء هادئ. ستقضي والدتها، ميرفت، الليلة في بيت أختها، منيرة، التي تريد تحضير وليمة كبيرة في الغد لابنها الذي عاد قبل أسبوع إلى الوطن بينما أخوها، لؤي، مسافر في عمل. أشعلت خالتها البيت بالهرج والمرج لدى علمها بقرب وصول ابنها خالد أو لنكون أكثر دقة الدكتور خالد الفقيه الذي قرر أخيراً العودة للوطن الذي غادره منذ ما يزيد عن العشر سنوات. علمت كيان من والدتها أنه اختلف مع والده على تخصصه الدراسي حيث أصر هو على رأيه وكان له ما أراد، إلا أن ذلك قد ترك شرخا في علاقته بوالده تم إصلاحه بعد تفوقه في الجامعة وحصوله على الدرجة

العليا في تخصصه.

في الحقيقة غريب هذا الصدام بين الأهل والأبناء فالأهل ينجبون الأبناء لأنهم زينة الحياة الدنيا -في نظرهم- ولأسباب أسمى تتعلق باستمرار الإنسانية وعبادة الخالق. أي أن إنجاب الأبناء وتربيتهم ما هي إلا رسالة الإنسان لإعمار الكون، هذه التربية يجب أن تأخذ على عاتقها تأهيلهم للنجاح في زمان مختلف قد يحمل من المشقات والتحديات ما لم يعايشه الآباء والأجداد وهذا يتضمن وضعهم أمام المهام الصغيرة كي يتمكنوا مستقبلاً من تحمل أعباء المهمات الكبيرة. وهذا ينطبق بالطبع على اختيار التخصص الدراسي والموقع الوظيفي وشريك الحياة. تدخل الأهل في هذه الاختيارات لن يجعلهم سوى الشماعة التي تُعلق عليها أسباب الفشل -لو وقع- أما حال النجاح فلا يُرى من يقف في الخلفية ولا يهم. كانت هذه وجهة نظر كيان، وعلى أية حال الخلاف انتهى الآن.

- أخيراً، وقتُ الراحة

قالت لنفسها ملقيةً بثقلها على الأريكة بعد انقضاء نهار من الكد والعمل. معركة الحياة لا تعرف استراحة المحارب!

تأملت غرفة المعيشة الهادئة، الضوء الخافت المنبعث من زاوية المكان يلتقي مع ضوء القمر المتسلل من الشرفة، ورائحة زهر الياسمين

تملأ المكان. لوالدتها ذوق رائع يبدو جلياً في ترتيبها للمنزل كما أنها تحب الحديقة وتعتني بأزهارها ونباتاتها كل يوم، وتقوم كيان بمساعدتها كلما تسنى لها الوقت. أحضرت لها أبصال أزهار التوليب والنرجس في زيارتها لباريس بصحبة أخيها العام الفائت. وزعتها والدتها في أركان الحديقة لتعطي منظرا خلابا بتعدد ألوانها وانحنائها بتواضع لتحيي الزائرين.

لهذه الأمسية الهادئة لم تنسَ كيان تحضير كأسٍ كبيرة من الشاي الأسود المنكّه بالفانيليا والكتاب الذي استعارته. استلقت على الأريكة ونظرت إلى عنوان الكتاب ودون قصدٍ منها تذكرت جملة «سيدة تقرأ عن الاقتصاد»، لوت شفتيها عندما تذكرت قائلها بينما تحدث نفسها: «لأكون منصفة فإن ذلك المتطفل لديه هالة من الجاذبية، لا أدري إن كان سببها طوله الفارع ونظرته الهادئة، أو ربما أناقته الملفتة، شكله يذكرني بشيء ما».

مرة أخرى عادت لتجول ببصرها في أنحاء المكان. كثيراً تراودها ذكرى أول يوم جلست فيه على تلك الأريكة. عامان مرا منذ أن انتقلوا إلى هنا وقد كانت فكرة صائبة تماماً. كان في صحبة خالتها وأخوالها خير السلوى خصوصا في غياب لؤي الذي قرر في ذلك الوقت السفر إلى لندن. أنهت سنتين أخريين في تخصص إدارة الاعمال وحصلت على وظيفة جيدة في مؤسسة كبيرة تُعنى بتأهيل المعاقين. طبيعة العمل

تناسبها، فيها الكثير من الادارة والتخطيط بالإضافة إلى بعض الجولات الميدانية. كيان تأثرت وتغيرت كثيرا باختلاطها بمختلف الشخصيات والعقليات قليلاً خلال الدراسة وكثيراً خلال العمل. خبرات الانسان حصيلة من العلم النظري والعملي تتراكم بمرور الوقت ويتغير معها سلوكه وشخصيته ونظرته للحياة بشكل عام وكيان تعتبر نفسها مثالاً جيداً لهذه الحقيقة. أوضح دليل على ذلك هو خطبتها لابن عمها التي تمت رغم عدم رغبتها بها، لكنها أرادت النزول عند رغبة أبيها. كان رحمه الله كثير القلق عليها وكان يعتقد انه سوف يطمئن إذا تزوجت من شخص يعرفه، وكان هذا الشخص ابن أخيه، عمار.

عندما تقدم عمها لخطبتها لابنه من أبيها وافق موافقة مبدئية –دون الرجوع إليها– وأبلغ عمها بذلك. لاحقا تحدث اليها يخبرها بما دار بينه وبين أخيه بشأن خطبتها. كانت لا تزال صغيرة السن قليلة الخبرة وكانت تحب أباها وتثق بحكمته لذلك قبلت نصيحته بالموافقة على الخطبة فإن شعرت بعمار وآمنت بأنه الشريك المناسب لها فيها وإن لم يكن ففي كلّ خير. نقل والدها خبر موافقتها لعمها وابنه واتفقوا على إقامة حفلة صغيرة مع المقربين من الاهل والاصدقاء.

أقيمت الحفلة في حديقة بيتهم ومر اليوم هادئاً رزيناً، وكان عمار وللغرابة هو الأكثر هدوءاً بين جميع الحاضرين. تحدث معها ببضع كلمات لم تتجاوز المباركة والسؤال عن الحال والدراسة حيث كانت كيان

قد أنهت في ذلك الوقت سنتها الجامعية الثالثة. مرّ الصيف رتيباً إلى حد ما مقارنة مع أجواء الصيف التي تعج بالحركة والنشاط وكانت هي على غير عادتها هادئة، شعرت أنها كبرت وأصبح لزاما عليها أن تتصرف بما يناسب الظروف القائمة، إلى أن جاء الخريف. وكما للسنة خريف فللعمر خريف تتساقط فيه الأوراق المتبقية من قوتنا وصحتنا الواحدة تلو الأخرى، وهذا ما حدث لوالدها. شهد هذا العام سقوط آخر أوراقه بعد أن أنهكه المرض فانتقل إلى جوار ربه في صباح جمعةٍ حزين بكت فيه الجدران والشجر وتوقفت عن الغناء العصافير.

كان عمها وأسرته جميعاً قد بذلوا من الجهد أقصاه لمؤازرتهم وتقديم ما يحتاجون له من دعم خلال أيام العزاء وبعده وكانت سنة كيان الدراسية الأخيرة قد بدأت، لكن عزيمتها كانت في أسوأ حالاتها. استيقظت متأخرة ذات صباح منقبضة الصدر وقد كانت ليلة مزعجة لأبعد الحدود، بدلت ثيابها وأخبرت والدتها بأنها ستخرج لاستنشاق بعض الهواء النقي.

أخذتها قدماها مسافة ليست بالقليلة فجلست على مقعد مستقر في جانب الطريق -تعتقد أنه ربما وُضع خصيصاً للبائسين أمثالها- وجعلت تبكي حتى أحسّت ان نبع دموعها قد نضب. نظرت في الافق البعيد حيث تعانق السماء سفح الارض بكل سكون ورضا، وتهيأ لها أن وجه السماء يبتسم لها فابتسمت. الشكر لله مانحنا هذا الجهاز العصبي المعقد

الذي تتغير حالته من أقصاها إلى أقصاها بإيمان داخلي مشبعة به بواطن العقل. البكاء رغبة لابد أن نستسلم لها في منأى عن الاخرين، نبكي أنفسنا ونواسيها ثم نشحنها بأمل جمّ وإيمان عميق بأن دوام الحال محال فعلى الانسان تدور الدوائر، سنة كونية!

ما ان عاد إلى نفسها هدوؤها عادت للتفكير في المستقبل وفي كيفية الخروج من الازمة بلا خسائر وان لابد فبأقلها. فقدانها لوالدها كان صدمةً حقيقية أهملت معها الكثير من واجباتها بما في ذلك عمار، والحقيقة أنه لم يكن يكثر السؤال أو الاتصال فأعفاها من الاحراج، مؤقتاً!

قررت الاتصال به والإستفهام عن رؤيته لأوضاعهما الحالية وخططه للمستقبل وإن كان لديها تصورٌ مسبق كانت قد بنته بناء على تصرفاته معها وخصوصاً محاولاته تجنبها. ما ان أجاب هاتفه حتى جاءها صوته بارداً ضعيفاً وعندما سألته عن السبب قال أنه منهك من العمل ولديه صداع فما كان منها إلا أن تمنت له السلامة ووعدها هو الاتصال بها في المساء والذي جاء في مساء اليوم التالي. تحدثا قليلا وتبادلا السؤال عن الحال والجامعة وسألته هي عن عمله إلى أن قال أنهما يجب أن يتحدثا في أمر هام فقالت:

- كلي آذان صاغية

هي تعلم أنه لابد أن هناك تفسيراً لما يحدث. بدأ عمار بالقول أنها

ابنة عمه، وأنها فتاة ممتازة وجميلة والمستقبل أمامها فأدركت في الحال ما ستنوء عنه هذه المقدمة المعتادة والتي هي -في رأيها- تكلف لا فائدة منه فقالت:

- شكراً لك

- الحقيقة كيان أنني فوجئت عندما عرض عليّ أبي موضوع الخطبة لأنني أحب عمي وأسرته ولم أكن أتمنى خسارتهم لكن أبي أصر على إتمام الخطبة وجعله مرتبطاً برضاه عن منحي مبلغاً مالياً كنت قد طلبته منه لافتتاح مشروعي الخاص فسايرته بقولي إن شاء الله وقد أخذ هو موقفي هذا على أنه موافقة وتحدث إلى عمي في الأمر، والباقي تعرفينه

- أي أنك قمت باستغلالي لتحقيق هدفك

- صدقيني كيان، لم أكن أقصد ولم أتوقع سير الأمور بهذه السرعة

- لذلك كنت دوماً متباعداً، كنت مرغماً على خطبتي!

- قلت لكِ أنك تستحقين الافضل وأنا آسف لكني .. لكني مرتبطٌ عاطفياً بزميلة لي ووعدتها بالتقدم لخطبتها ما إن يبصر مشروعي كنف النور

- كنتَ تخدعني إذن

- بل كنتُ أنتظر الفرصة المناسبة للحديث معكِ لكن وفاة عمي رحمه الله أخرت الأمر كثيراً فلم تكوني في حالٍ تسمح بالحديث عن أمر هام كهذا

- والآن رحل عمك والكل من بعده سيان!

- لا تصعبي الامر عليّ كيان. لم أفكر بهذه الطريقة مطلقاً لكن هكذا زواج لن ينجح وما تربطنا هي خطبة، أنت تستحقين السعادة مع رجل لا يرى سواك وأنا تعرفت على زميلتي وأحببتها، ليس الامر بيدي

- معك حق ما يربطنا هو خطبة، أعتبرُها انتهت الآن

- صدقيني لم أتمنَّ أن أحرجك يوماً فأنت ابنة عمٍ عزيزة وستبقين كذلك

- شكراً لك، سأذهب للنوم فلدي عمل في لصباح الباكر، تصبح على خير.

كيان تعرف أنها كانت سخيفة لكنها أثناء حديثهما شعرت بالحنق عليه لأنها اعتقدت أنه تعمد إهانتها لكنها عندما عاودت التفكير في الأمر مجدداً وتذكرت حديثها مع والدها تلك الليلة التي أخبرها فيها بأمر خطبتها وجدت أن الامور سارت على أفضل ما يرام وأنه لم يكن

بينهـا وبـين عمـار سـوى الاحـترام، والاحـترام وحـده لا يكفـي لإتمـام مشروع زواج. لابد مـن وجـود الـشوق ولـو قلـيلاً ثـم الحـب، والاحـترام بطبيعة الحال عامل مشترك في أي علاقة إنسانية.

* * *

جرت هذه الاحداث قبل امتحانـات نهايـة الفـصل الدراسـي ومـرت بضعة شهور تبعها حلول الشهر الفضيل. في ذلك الوقـت شـعروا جميعـا بأن رجل البيت قد رحل. شعرت كيان أن روعة السحور وبهجة الافطـار ومتعة ما بعده وروحانية صلوات الليل قد غابت كلـها وكـأن والـدها قـد قيدها في ركن خفي قبل غيابه، رحمه الله. كان حرص أبيها على تحضير أجواء البيت لاستقبال الشهر الفضيل لا يقل عن تحضيرهم نفسيا للـصوم والتعبد. كانوا يعلقون زينـة رمضان والفوانيس في حديقة المنزل ومدخله. صوت الابتهالات الدينية للـشيخ سـيد النقـشبندي ونـصر الـدين طوبـار وغيرهم من المنشدين لم تغب يوماً ساعة السحور، وقبيـل المغـرب يـصدح الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بروائع السور، إلى جانب الصوت القادم من مآذن المساجد. لم يكن والـدها يـدخل المطـبخ إلا إذا طلبـت والـدتها ذلـك منه، كان دوماً يقـول: «المطـبخ مملكـة سـيدة المنـزل ويجـب علـيّ احـترام خصوصيتها فيه ما لم يطلب مني غير ذلك». كـان والـدها شـديد الحـرص على إعداد إفطار مناسب لأربعـة أشـخاص دون تقـتير أو إسـراف. دومـاً كان يذكرهم بمن لا يملك قوت يومه ويذكرهم بأنه يجب علـيهم احـترام

الارض واحترام خيراتها بالحفاظ عليها واستهلاكها فقط حد الحاجة. كانوا نادراً ما يشاركون أحدا مائدة الافطار -ليس في بيتهم ولا خارجه- ذلك ان أباها كان يؤمن بأن لكل عائلة طقوساً رمضانية يجب أن تُحترم كما ان ضيق الوقت وتغير مزاج الصائمين غالباً ما يحول دون ذلك، لكنه رحمه الله كان حريصا على عادة افطار الصائمين والتي كانت تتحقق اما من خلال موائد الرحمن او بذهابه شخصيا إلى أقربائه بما يجود به الله عليهم. وكانت أمها بدورها ترسلها أو أخاها دوماً الى الجيران والاقرباء بأطباق الحلويات التي تجيد صنعها. كانوا يحبون الشهر كثيرا ويتمنون ألا ينقضي، وها هم يعيشونه وكأن الروح قد اتشحت بالسواد! غاب ربُّ البيت ومعه غادر الفرح رغم كل محاولات والدتها للحفاظ على ذكرى زوجها بالاهتمام بكل ما أحبه. وجاء بعد الشهر عيد، كانوا صغاراً وكان للعيد حلاوة لا تختزلها مرارة الواقع مهما حاولتْ، أما عيدهم هذا فهو حزين يُحتَضَر!

في يوم العيد الثالث اجتمعت كيان مع أمها وأخيها لؤي لشرب شاي المساء فذكرت فيه والدتها اقتراحا بأن يسافروا للعيش في كنف أخوالها، أولا للابتعاد عن جو الحزن في البيت الذي تذكرهم كل زاوية من زواياه بالحبيب الراحل وثانيا قد يكون في الحياة قرب خالتها واخوالها بعض السلوى والمرح فتكون الحياة أكثر صخباً ومتعة مما هي عليه في الوقت الحالي. شجع لؤي الفكرة من أجلها وأمه، أما هو فكانت لديه خطط

أخرى. رأت الارتياح على وجه والدتها فشعرت أن هذه هي الفكرة الصائبة وبدأوا يتحضرون للرحيل لتجد نفسها اليوم جالسة على هذه الأريكة.

* * *

عند عودتها من عملها عصر اليوم التالي وجدت كيان والدتها ولؤي في انتظارها ليتناولوا طعام الغداء معاً. قال لؤي بأنه ذهب لزيارة خالته ولقاء ابنها خالد واستمتع كثيرا برفقته حيث أخبره الأخير عن حياته في الولايات المتحدة ودراسته وعمله. وكان مما ذكره لؤي أن خالد عاش كل تلك الفترة وحيداً إلا من بعض الأصدقاء العرب. استغربت كيان الأمر جداً فحسب ما تذكر أن خالد يكبر لؤي بأربع سنوات، أي انه يجب أن يكون في الثانية والثلاثين. يبدو أنه اعتاد حياته منفرداً.

- نحن مدعوون على العشاء عند خالتك كيان وهي مصرة على حضورك ولؤي سيرافقنا، لذلك أرجوك حبيبتي أن تتجهزي حتى لا نتأخر

إذن لا سبيل أمامها للتهرب حيث أنها لم تذهب لتهنئة خالتها بسلامة خالد، اكتفت بمكالمة هاتفية. وفي الواقع كانت رائقة المزاج وعلى استعداد للخروج فتأنقت بثوب يتداخل فيه الاخضر والأبيض وحجاب من اللونين. عندما نظرت لصورتها في المرآة وجدت أنها متوهجة الوجنتين مضيئة العينين وقد أكدت أمها ذلك بتلاوتها بعض آيات

القرآن الكريم لتحميها من الحسد، كما تقول. تذكرت كيان عندما كانت تنتظر القطار في المحطة الرئيسية في باريس حيث أقبلت باتجاهها سيدة بوجه بشوش وتحدثت إليها بالفرنسية وقد كانت كيان لا تعرف منها إلا بضع كلمات فلم تفهم ما قالته السيدة والتي أعادت قولها بإنجليزية ركيكة بأن حجاب كيان يعجبها ليس أنها تحب الحجاب لكنها ترى أنها جميلة وحجابها أنيق. «ليس الجميع فقط أنتِ» جملة السيدة التي لن تنساها كيان.

كانوا قد حضَّروا كعكة التمر وكرات جوز الهند والمكسرات وأخذت والدتها كذلك بعض المخبوزات، قالت أنّ أختها قد طلبت ذلك منها. أقلهم لؤي بسيارته وكانوا آخر الحضور. لسوء حظها كانت كيان في المقدمة عندما فُتح الباب وزاد اتساع عينيها عندما رأت من قام بالفعل، إذن من قابلته في المكتبة لم يكن إلا قريبها وحدسها لم يخطئ. أما هو فقد كانت المفاجأة ردة فعله الأولى لكنه تبعها مباشرة بابتسامة مهذبة مرحباً بهم وسلم على والدتها التي التقطته بين ذراعيها قائلة:

- أصبحت رجلاً الآن، لكن هذا لا يمنع أنك صغيري خالد وأنا من كانت تغير لك ملابسك

هكذا هي أمها لا تفتأ تحرج الجميع بقصد وبغير قصد، لكنه لم يهتم بل وسألها بوقاحة

- وما هي الأمارة خالتي؟

تبادل لؤي معه تحية قصيرة وكأنهما صديقان منذ سنوات أما هي فقد كانت تحلل تلك المصادفة الغريبة، بينما أقبلت خالتها ترحب بهم بكل حرارة كعادتها. احترمت كيان تصرف خالد في الترحيب بها بإيماءة بسيطة دون أن يمد يده للمصافحة، «يبدو أنه على حدٍ كاف من اللباقة ليعرف أن السيدة هي من تبدأ بالمصافحة إن أرادت ذلك وإلا فإنها إشارة على أنها لا تحبذها».

كانت سهرة لطيفة تبادلوا فيها أطراف الحديث والكثير من القصص التي عاشوها في الفترة السابقة. أخبرهم خالد الكثير عن سفره وتحدث لؤي عما فاته هنا، أخبره عن رحلاتهم في أوروبا وشاركت بنات أخوالها بالكثير من القصص المتعة عن كل أفراد العائلة وتحدثت كيان عن عملها لكن يمكن القول بأنها كانت أكثرهم استماعاً.

«لا أدري ما السبب لكني لاحظتُ أن خالد قوي الشخصية جريئها، عندما ألتقي بعينيه أشعر بالارتباك ويبدو أنه يتعمد ذلك، فما أن أتحدث حتى يعطيني كل تركيزه، ربما كان ذلك -في نظره- نوعاً من التهذيب لكنه دفعني إلى الإقلال من الحديث مع أنه ليس طبعي خصوصاً في جلسة ممتعة مع خالتي وبنات أخوالي».

علقت خالتها بالقول أن كرات جوز الهند رائعة فبادرت أمها بالقول أن كيان تحبها لذلك هي تصنعها بإتقان، فقال خالد:

- اعتقدت أنك ممن يأنفون أعمال الطبخ

- لِمَ؟

- لا أدري مجرد تصور

- أبداً على العكس فالطبخ هواية ممتعة تحتاج إلى القليل من الصبر والكثير من الذوق وأنا لا تنقصني هذه أو تلك

- واضح!

أردف مبتسماً ثم توجه ببصره إلى لؤي الذي كان يسأل:

- ماذا بالنسبة للعمل خالد، هل قررت؟

- فكرتي الاولى هي افتتاح مكتب استشاري يأخذ على عاتقه مساعدة المستثمرين من أصحاب رؤوس الاموال الكبيرة والصغيرة في تسوية الامور التجارية او القانونية. وإن تسنى لي الوقت قد أقوم بتدريس القليل من المواد الدراسية في جامعة مناسبة

- أستطيع مساعدتك في الحصول على مكان مناسب فقط أخبرني

- ممتاز، شكرا لك لؤي

- لي زميل بارع في أعمال التصميم والديكور، أستطيع أن أعرفك عليه إن احتجت ذلك

كانت هذه كيان بينما قالت سلمى:

- وأنا مستعدة لتزويد المطبخ بكل ما يحتاج من معدات، سأتسوق

طبعاً، ما رأيك كيان نستطيع الاستمتاع بوقتنا؟ ما رأيكنّ يا فتيات؟

- لا مانع لدي

أجابت كيان بينما اعتذرت الأخريات لأسباب مختلفة

- وهذا أيضا ممتاز، شكرا كيان، شكرا سلمى، شكرا لكم جميعاً لا تعلمون كم افتقدت هذه الروح الاخوية وهذا التعاون في غربتي

لاحقاً كانت كيان قد انتقلت مع الفتيات إلى الحديقة للاستمتاع بروعة المساء وتبادل الأحاديث اللطيفة -كما تسميها سلمى- التي كانت أكثرهن حديثاً، عن أخيها وذوق أخيها وروعة أخيها وانتهت بأنها تتمنى أن تكون محظوظة لتلقي برجل كخالد. قالت فاطمة:

- فعلاً يبدو خالد لطيفاً لكنني لا أفرط في بودي

- تنادين عبد الرحمن بودي وهو رجل بذلك الطول والعرض؟

قالت سلمى محاولة إثارة غيظها لكنها لم تهتم وقالت:

- هذا للتدليل، أنت لم تتمي الثامنة عشرة من العمر، لا زلت صغيرة على هذه الأمور يا فتاة. المهم أن كلنا هنا إما متزوجات أو مخطوبات، كيان هي المرشحة الوحيدة لتنال شرف الفوز بالعظيم خالد!

- دعنني وشأني! أنا لا أفكر في الارتباط

- لقد مللنا هذه المعزوفة كيان! أنتِ في الرابعة والعشرين

استئذان وسنرى دفاعاتها تتهاوى الواحد تلو الاخر، علينا فقط أن ننتظر الشخص المناسب

كانت هذه بشرى لترد كيان:

- أصبحت أنا محور الجلسة؟ أترك لكنّ سلمى فهي أيضاً لا تزال آنسة وسأغادر أنا حتى لا أتأخر غداً على عملي فهناك من ينتظر هفواتي ليصب جام سخطه بكل سرور على رأسي. أراكن قريبًا

* * *

بعد ستة أسابيع من العمل الشاق تم افتتاح المكتب وبعدها بيومين دعاهم خالد للعشاء تقديراً منه لجهودهم ومساندتهم. جميعهم رفض ذلك التكليف لكن خالد قال بأنه يود الاحتفال مع عائلته بهذا النجاح فما كان منهم إلا الموافقة. اقترحت والدته أن يأخذوا أمتعتهم لقضاء الامسية على الشاطئ باعتبار أن اليوم التالي هو يوم عطلة والطقس لا زال يسمح بتلك الرحلة.

وصلوا إلى الشاطئ ساعة الغروب حيث تنخفض الشمس لتعانق صفحة الماء مودعةً على وعد بلقاء آخر قريب. نقلوا الامتعة من السيارة وأعدت الفتيات مكانا للجلوس بينما كانت الأختان تحدقان في منظر الغروب وتسرح كل منهما بخيالها في مكان لا يعلمه إلا الله. أخرجهما من ذلك الصمت سؤال خالد إن كانت لهما رغبة في تناول بعض الطعام

وحين كانت رغبة الجميع الانتظار الى ما بعد صلاة المغرب توجه للسير قليلا على الشاطئ.

عند عودته اقترحت سلمى الذهاب لشراء المثلجات وتوقفوا عدة مرات لتعدد معارف ابنة خالته! هذا يسلم وهذه تسأل عن الحال وتلك تعاتبها لعدم حضورها حفلة خطوبتها وهكذا إلى ان تقدم منهم شاب متبوعاً بفتاتين في مثل عمر كيان تقريباً. ألقى التحية فقدمته كيان لهما

- زياد محمود رئيس قسم الحسابات في مؤسستنا
- د. خالد الفقيه ابن خالتي وهذه سلمى أخته، رأيتها معي في المؤسسة مسبقاً

قدم هو إحدى الفتاتين على أنها أخته والاخرى خطيبته بينما كان يطيل النظر الى كيان وكأنه يعاتبها. تبادلوا حواراً قصيراً واستمرت كل مجموعة في طريقها بينما سلمى تغمز كيان وتتضاحك وكيان تحاول إسكاتها دون فائدة.

كانت أمسية جميلة بحق، لعب خالد ولؤي تنس الريشة بينما ذهبت كيان وسلمى للسير على الشاطئ والاستمتاع بمداعبة مياه البحر الدافئة لأقدامهما. أقاموا بعد ذلك حفلة شواء صغيرة، أكلوا الكثير من الخضار والقليل من اللحوم وإلا فلن يستطيع أحد منهم النوم بعد وجبة دسمة. بعد العشاء أجروا مسابقة بنك المعلومات، كانت والدة خالد،

منيرة، تطرح الاسئلة بالتناوب مع أختها ميرفت وكان على أربعتهم الاجابة إما بالتناوب أو بسرعة فكانت النتيجة النهائية تقدم خالد بفارق ضئيل عن كيان ولؤي بينما احتلت سلمى المركز الاخير مدافعة عن نفسها بأنها الاصغر سناً، ومعها في ذلك كل الحق.

* * *

مرت على يوم الشاطئ ستة أسابيع لم يقابل فيها خالد كيان لكنه فكر بها بشكل متكرر. في ذلك المساء على الشاطئ كان يختلس النظر إلى عينيها فقد لاحظ فيهما بريق غريب وهدوء يأسر وظلت تلك الصورة رفيقته في الايام الماضية. منذ المرة الاولى التي رآها فيها والمرات القليلة التي تلتها رأى أن هناك فرقاً بينها وبين الفتيات التي اعتاد رؤيتهن في السنوات الماضية. كان فيها نوع من الجاذبية المجردة من المادة، ربما لمحة هدوء تظهر على محياها، لا يدري، شيء لا يستطيع تحديده آنيا. هو لا يدعي أنه وقع في الحب، فخالد من أولئك الذين يؤمنون بأن الحب لابد أن يتفق عليه القلب والعقل معاً. هو فقط يرى أنها لفتت نظره وأشعرته بالفرق بين الحقيقي والمزيف، وهو هنا لازال يقيّمها كإنسانة ولكن من يدري ما تخبئه لهم الايام. هي جميلة ما من شك في ذلك، لكن الجمال له ميزان يختلف من عصر إلى عصر كاختلاف موازين سوق الاوراق المالية، وجمال المظهر يتكفل الزمن بإفنائه بينما جمال المخبر

على حالة من الدوام. خالد يقول دائماً بكل صدق أنه كان في بلاد وُهبت من الجمال الطبيعي مالا حدّ له لكنه في كثير من الاحيان مغطى بزيف الحياة العصرية والتمدن. ما تقع عليه عينُك من تشرذم وتعالي على الطبيعة يجعل منه جمالاً ممسوخاً، كصورة تم تلطيخها بعد أن كانت لوحة إعجاز. هذا الكلام بالطبع لا يصح على إطلاقه لكنه دوماً كان يشعر أن هناك حاجزاً يمنعه من رؤية ذلك الجمال، قد يكون ذلك إيمانه بأن المرأة بلورة لا يناسبها إلا نقاء قطرات الندى.

المرأة في تصوره لديها عمق إنساني لا يتناسب مع ما تجردت منه نساء كثيرات في مجتمع اليوم بحجة المدنية والتحضر. وقد تكون معرفته هذه للفرق بين الحقيقي والمزيف تحدياً لإيجاد امرأة بالمواصفات التي يتمناها حتى في مجتمع شرقي بدأ يتأثر بالعالم الكبير في ظل العولمة بأشكالها ووسائلها المختلفة. هو لا يقول أنه يبحث عن جارية يكون هو سيدها، يأمرها فتأتمر وينهاها فتنتهي. كلا، مطلقاً!

«أنا أبحث عن إنسانة تعرف قيمة الحب وتقدره، عذبة كالنهر أينما حلت تركت خيراً، مثقفة، اجتماعية، عملية، ذكية، جميلة، ناعمة الحديث. إنسانة تستحق أن تكون رفيقة درب، ولها منّي نفسي وما أملك».

* * *

آخر يوم من ذلك الأسبوع قرر خالد الذهاب لزيارة خالته بعد انتهائه من العمل الذي يعانده اليوم ويأبى أن ينتهي. قابل خالته أمام باب بيتها، كانت عائدة لتوها من السوق فدخلا سوية ورفعت خالته صوتها لتخبر كيان بأنه يرافقها فسمعا صوت خطاها تبتعد. توجه خالد للصالة الصغيرة الملحقة بغرفة استقبال الضيوف، كان جهاز التلفاز مناراً. على أريكة قريبة رأى ذات الكتاب ودمية كبيرة على شكل أرنب يتوشح بشال نُسج عليه «إلى ابنتي الحبيبة». وخزة تلك التي أصابت قلبه عندما شعر أنها تعاني الفقد وتبتغي في وجود هذا الأرنب المحشو رفقة والدها الراحل، لكنه ابتسم عندما تخيلها بضفيرتين تطيران معها إذ تهوي في حضن والدها الذي أحضر لها هذه الهدية اللطيفة في إحدى المناسبات لعلها ذكرى ميلادها. محظوظة هي بهذه العلاقة المميزة مع والدها الذي وإن رحل باكراً تبقى ذكراه أبداً. أخذته أفكاره إلى ذلك اليوم الذي شعر فيه بغضب والده منه عندما قرر السفر وتمنى أن يأخذه بين ذراعيه قبل أن يغادر لكنه لم يفعل، كان وداعهما بسيطاً روتينياً.

حضرت خالته ومعها الشاي وبعض الكعك وقالت موجهة نظرها إليه:

- تعودت أنا وأبو لؤي رحمه الله على شرب الشاي في المساء منذ زمن طويل حتى قبل أن نرزق بالأطفال واستمرت معي هذه العادة إلى اليوم.

يبدو أن خالته أيضا تشعر بالحنين إلى زوجها، ومن يلومها فقد كان نعم الرجل على حد قول والديه. بعد قليل حضرت كيان فحيتهما وجلست إلى جوار والدتها، هما إلى حد ما صورة ونسختها إلا أن والدتها تملك عينين ناعستين أما كيان فقد ورثت عينيّ والدها رحمه الله.

نظر إلى الكتاب وسألها مبتسماً:

- إذن كيف وجدته؟

- ازددت يقينا بأن الاقتصاد ليس غولاً يلتهم النساء!

قالت مبتسمة وضحك هو بصخب، «إجاباتها حاضرة هذه الفتاة»

- جيد أنك تستمتعين بوقتك

- أتعلم أنني شعرت بأني أعرفك، لكني لم أدرك صدق حدسي إلا عندما رأيتك في بيتكم

- أما أنا فلم أتوقع أنك قريبتي، كنت في الخامسة عندما قدمتم لزيارتنا آخر مرة قبل سفري

- نعم فقد كنا نلح على أبي أن نذهب لزيارتكم وفي كل صيف يتهيأ لنا سببٌ لتأجيلها وفيما بعد كنت أنت قد سافرت

قالت خالته ممازحة:

- يبدو أنك عرفت الكثير من الحسناوات خلال سنوات غربتك

نظر إليها وازدرد ريقه قبل أن يجيب:

- نعم، كثيرات جدا خالتي على كل لون وشكل، كلٌّ وذوقه وغمز لها، بينما يحدثه عقله بأن واحدة منهن لم تؤثر به كما تفعل ابنتها، ثم سمع خالته تقول:

- يا لك من خبيث! ما دام الأمر كذلك، ألم تجد من توافق ذوقك من بين تلك الحسناوات؟ أم أنك لم تناسب أذواقهن؟

- صدقيني، لم أجد! فالفتاة التي أريد رائعة وسأعرفها عندما تظهر وأنا مغمَضُ العينين. ولن أجيب عن سؤالك الآخر يا خالتي العزيزة لأن الجواب ربما لن يروق لكِ

- سأخبر أختي بأن تبحث لكَ عن عروس

- أما سمعتِ يا ميرفت قول نزار «الحب للشجعان والجبناء تزوجهم أمهاتهم»؟ .. وأنا لا أود أن أشعر بأني جبان ولا حتى أمام نفسي!

- احترم عمري أيها المشاكس، ولنرى إذن اختيار الشجعان

كيان كانت صامتة صمت الدهر تراقب الحديث وحسب وتمنى هو لو يعرف ما يدور برأسها تلك الساعة لذلك سألها:

- ما رأيك أنت كيان؟

- في ماذا؟

- في الحب!

- أوه نعم، الحب .. أرى أنه لا سبيل أمامي للتهرب من الإجابة؟

- كلا .. يهمني سماع رأيك

نظرت الى النافذة الواسعة أمامها لترى الجزء الامامي من حديقة المنزل، رياح تشرين تراقص أغصان الاشجار وسعف النخيل بحركات عشوائية في إشارة إلى قرب حلول الشتاء. في ركن الحديقة تستقر أرجوحة ذكرتها بتلك التي كانت تقضي عليها أمسياتها وصباحاتها في منزلهم القديم قبل ما يقارب العقدين من الزمان. تذكرت كذلك تلك الحفلة البسيطة التي أقاموها احتفالاً بخطبتها وعمار قبل وفاة والدها بقليل، عندها أدارت رأسها لتنظر حيث يجلس، وبدا أنها تحاول من عمق جوفها سحب الكلمات لكن شفتيها المطبقتين لا زالتا تمنعان ذلك الحشد من المرور، ثم قالت أخيراً:

- في رأيي أن تؤمن بالحب شيء وأن تعيشه شيء آخر. الايمان بالحب -ككل إيمان- يجعل مما تؤمن به مصدر طاقة متجدد يرافق خطواتك ما حييت، أما إذا قدر لك وعشت الحب -كإنسان عادي- فسيكون شمعة يتضاءل طولها شيئاً فشيئاً ككل شيء في بدايته، يبدأ عظيما ليصبح بسنة التكرار مجرداً من أي قدسية.

كانت لا تزال تتحدث دون النظر إلى أي منهما وكأنها تسمع من حفظها نصاً أو قصيدة.

- هذا يعني أنك ترينه نظرية غير قابلة للتطبيق؟

- ليس الأمر كذلك، أنا أعتقد أن الأمر يعتمد على استعداد كل طرف لحماية ذلك المولود، لإعطائه الأولية في البقاء واعتبار ما دون ذلك تفاصيل يمكن التفاوض عليها، لكن ما تراه حولك يوحي بأن الجميع يتسابق لوأده دون أن تأخذهم به رأفة!

- أليس هذا تجنياً؟

قال مازحاً لتلطيف جو الحوار

- أبدا يا دكتور، أنت سألتني وجهة نظري وأنا أجبت

- وهل تحتاج المسألة لكل هذه التعقيدات؟

- لِمَ تراها بتلك الطريقة؟ أنا أوضح لك أن الشجاعة في الحب لا تكون بخلقه بل بالحفاظ عليه حياً. هو كالصحة إن فُقدت، ضاعت معها الرغبة في الحياة مهما استماتت لأجل ذلك المحاولات!

لم يعلق وأخذ يسأل نفسه من أين أتت بتلك الافكار، وشعر بغيظ شديد إذ تصور أنها خُذلت من أحدهم. مهما كان ومن يكون فهو بلا شك أحمق! ومع ذلك فهو ربما يقدر له تلك الحماقة.

- دعينا ننتقل لموضوع آخر، أنتِ أخبرتني أنكِ تعملين في مؤسسة لتأهيل المعاقين، هل يمكنني زيارة مؤسستكم في جولة قصيرة؟

- نعم، تسمح المؤسسة بزيارة المهتمين وهناك برنامج لتعرفيهم

– أريد تكوين صورة عن الوضع وأريد المساهمة بشكل ما، وهذه الفئة من المجتمع مهضومة حقوقهم إلى حد كبير لذلك أتمنى المساعدة

لم تجبه إلا بابتسامة تحمل من معاني الشكر ما لا تترجمه الكلمات، ثم تابعت:

– متى يناسبك؟

– الخميس القادم؟

– الخميس أقل أيام الأسبوع ضغطاً، اتفقنا سأبلغ مدير المؤسسة بزيارتك

استأذن بعد قليل بالانصراف وسأل سلمى فيما بعد بطريقة حاول جاهدا ألا تكون مباشرة ومنها علم أن كيان كانت مخطوبة لابن عمها ولم يحالف تلك الخطبة النجاح لأسباب تتعلق بالرجل فتساءل بينه وبين نفسه كثيراً إن كانت قد أحبته فعلاً وجُرحتْ مما حدث وأثار هذا التفكير دون أن يشعر شياطين الغيرة لديه. عرف ساعتها أنه وقع وانتهى الامر، وصادقاً عاهد نفسه على أن يطيل عمر ذلك المولود إن كتبت له الحياة. وبذلك اليقين دخل التجربة التي بدأت بليل أطال سهاده إلى ما بعد الفجر.

* * *

بينما كانت منهمكة في إتمام عمل ما علـى جهـاز الحاسـوب الخـاص بها أحست كيان ببعض الحركة وهمهمات في مكتبها الذي تشاركه إياها زميلتان وقفت إحداهما مرحبة بالقادم وعارضة المساعدة. رفعـت رأسـها لترى خالد يهم بالدخول إلى المكتب موجهاً شكره لزميلتها وموضحاً بأنّ لديه موعداً مع الآنسة كيان رشيد الـتي تحركـت لتقابلـه عنـد منتـصف الغرفة مرحبة به، ثم قدمته لزميلتيها في المكتب وأضافت:

– دقيقة مواعيدك دكتور

– الحياة قصيرة لذلك لا أقبل أن أضـيع وقـتي في الانتظـار وأقـدّر ذلك لغيري

قال مظهراً تلك الابتسامة التي تميزه، وسمعت هـي تنهيـدة إحـدى زميلاتها

– هل تشرب شيئاً أم تود مباشرة البدء في الجولة؟

– أفضّل الخيار الثاني

– حسناً، امنحني دقيقة رجاءً

عـادت الى مكتبهـا لجلـب بعـض الاوراق بينمـا تحـرك هـو للخـارج لتُفاجأ بزميلتها

– كيان، من هذا؟ قولي بسرعة!

رفعت حاجبها وبشيء من اللامبالاة قالت:

- د. خالد الفقيه

تنهدت الأخرى مجدداً ورددت الاسم بحالمية ثم قالت:

- أعرف اسمه، أعني من أين عرفته؟

- يا لك من سخيفة .. عليّ الذهاب الآن فالضيف ينتظر، سأخبرك لاحقاً

قالت ذلك بنفاذ صبر وتوجهت مباشرة إلى الباب دون انتظار أيّ رد لتجد خالد ينظر إلى اللوحات الجدارية الرائعة التي يحرصون على توزيعها في كل مكان داخل أروقة المؤسسة وخارجها كوسيلة للتذكير بالقيم والافكار التي يودون نشرها وتدعيمها.

- «الحياة لا يهمها مطلقاً كم عمرك ولا على كم ساقٍ تمشي، هي ترحب بك جداً إن كنتَ تملك قلباً شاباً» .. مقولة جميلة

- نعم، نريد معنويات مرتفعة

تابعوا بعد ذلك جولتهم خلال المبنى المكون من خمسة طوابق بالإضافة إلى المبنى الذي يحتوي على المطعم وصالات التمارين وغرفة الترفيه. ثم توقفوا في الشرفة المطلة على الحديقة التابعة للمؤسسة. أشارت كيان إلى إحدى الفتيات وقالت:

-اسمها حبيبة

الناظر إلى وجهها يرى جمالا فطريا يشبه جمال الطبيعة، عيناها

خضراء تأخذ شكل اللوزة، دقيقة الانف، صغيرة الفم ويحيط بذلك وجه كالبدر في استدارته. تعلو ضحكاتها في صخب حيوي إثر حديث لها مع زميلة. للحظة تشعر أن القدر اصطفاها بمحاسن الخَلْق والحال لكن ما إن تنخفض عيناك حتى ينقبض قلبك لمصابها. هذه الفراشة التي لم تكمل بعد تحليقها في بستان الحياة أُجبرت باكرا جدا على الجلوس في ذلك الكرسي المتحرك. بالكاد بلغت السابعة عشرة لكن عندما أحضرها أهلها إلى المؤسسة كان يخيل للناظر إليها أنها في السبعين. بكل الطرق حاولوا مساعدتها إلا أن البداية كانت شاقة جداً عليها وعليهم إلا أنها في النهاية استجابت للبرنامج العلاجي واليوم تراها مثلك ومثلي، تفكر وتحلم وتخطط وتحب. نعم فمن ضمن الخطوات العلاجية حقنها بجرعات كبيرة ومتتالية من الأمل فإن كانت فرصتها في الحياة مع شريك محب ضئيلة فما زال أمامها الأمل وإن تعشق صورة يرسمها عقلها، أفضل بكثير من أن يبقى قلبها صحراء قاحلة! كم من أناس يعيشون مع بعضهم برباط قانوني وشرعي لكن من دون حب؟ أليس الحب جنتنا التي نؤوب إليها عندما يوصد الواقع أبوابه؟ أليس بمقدورنا رسم جنة على جدران عقولنا لنزورها بين حين وحين فنسعد ونأمل ومن جديد ننطلق؟! الخالق يعلم أن الحياة قد تفرض علينا سطوتها فمنحنا متنفسا خلال حلم نعيش فيه في اليقظة كان أو في النوم، نجني منه في النهاية فرحة وبسمة.

يصاب القلب بطعنة حادة عندما تعلم أن هذه الفتاة كانت قبل أشهر مضت تملأ الدنيا حيوية لكن الطعنة تكون قاتلة عندما تعلم أن من تسبب لها بهذه الكارثة هو والدها، والسبب دفتر مذكرات! أودى بها إلى الجحيم بسبب كلمات لم يأخذ وقته بالسؤال عنها. الفتاة المراهقة كتبت في دفترها كلمات تخاطب بها فتى أحلامها .. أحلامها! لكن سوء حظها جعلها تنسى دفترها مفتوحاً بين كتب مذاكرتها ليجده الأب وتمر عيناه على الكلمات فيشتعل فتيل غضبه. ناداها بصوت غاضب اهتزت له أرجاء البيت فاستجابت وكان يقف أمام سلم الطابق العلوي للمنزل ليهوي على خدها بصفعة أفقدتها توازنها تبعها بأخرى أسقطتها أرضا ولكن بعد تدحرجها على عدة درجات استقرت بعدها ككومة قش!

أفاق الأب من ذهوله على أقوال الطبيب بحرج الحالة وإنذار بسوء العواقب. انتهت الأمور بالفتاة بكسر في الذراع الأيمن وانهيار بالفقرات السفلية أدى شلل تام، أجبرت معه على استعمال الكرسي المتحرك. المشكلة كانت في حالتها النفسية أشد وأعمق فلم تكن في البداية على استعداد للعلاج والتمارين الرياضية لذلك قاموا بإحضارها إلى المؤسسة للاستفادة من خبراتها. البداية كانت عصيبة .. عندما تأتيك الإصابة ممّن تحب فالمصيبة أعظم!

لو منح الأب نفسه فرصة طرح السؤال لتكفلت بعض الدقائق بكبح سطوة غضبه، لو اعتاد على الاحتواء لما تجرأ على رفع يده في وجهها! ولو كان أباً مثقفا لتفهم حاجة ابنته أو ابنه إلى الحب، وهل الحب حرام إلا في مذهب الجاهلين؟! من قال أن واجب الأب أن يصفع وجهاً أو يكسر ضلعا؟! رسالة الأب -والأم- أن يربي ويعلم ويهيئ والشعور والرغبة من أكثر الأمور غرابة على الإنسان بحيث لا يمكنه فهمها أو إدراك أنها طبيعية -ومباحة- ما لم يكن معدا لذلك، ومن المثير للسخرية أن الحديث عن هذين الأمرين بالذات من المحرمات في مذهب الجاهلين. مراراً وتكراراً ترى مشهداً لأب يعاقب، يصرخ، يهدد، ولا ترى أبا يهدهد إلا لِماما!

بعد استعادتها وعيها وإدراكها لما أصبحت عليه حالها رفضت كردة فعل طبيعية قربه فما كان منه إلا أن ابتعد ولم يحاول السؤال عنها مرة اخرى. في مرحلة من مراحل العلاج طُلب تدخله لتتغلب الفتاة على مخاوفها وتم بذلك تحطيم أعظم الحواجز التي أحاطت بها هذه الفتاة البائسة نفسها. وها هي تزخر اليوم بالمرح والشباب لكن الله وحده يعلم ما الذي سيكون عليه مستقبلها.

استدارت كيان لترى شاباً منفرداً في أحد الأركان

- هيثم لم يتم بعد عامه السابع عشر، طفل بالكاد بدأ يخط

*

تلقى هيثم من العلاج ما يبقيه بفضل الله على قد الحياة – طبعًا غير الألم الذي يُمنح في بلادنا بسخاء نحصل على كلِّ شيء آخر بقدر – وبمرور الوقت اشتغل جسده بطبيعة يسيرنا بها رب الكون لتلتئم الجراح تاركة ندبتين كبيرتين في الساقين وندبة في الروح أجلّ وأعمق.

بعد عودته إلى بيت خُرب جُلُّه وغرفة غاب ساكنها معه وأقرباء يكثرون حوله الهمس، ومع غياب القوة الجسدية التي كانت ترافقه، شعر الشاب بحجم مصابه وتكالبت عليه آلام الروح والجسد ليسقط في دوامة الاكتئاب. عندما جاء إلى المؤسسة كان صامتًا، حزينًا لكنه بعد مرور ستة أسابيع بدأ بالاستجابة للعلاج النفسي. في الأوقات التي زرته خلالها بدأ بالحديث تدريجيًا، حدثني عن أخيه ومدرسته وهواياته وحلمه. قال: «نحن على استعداد للموت كي يحيا الوطن، لكن عندما خالفتنا الظروف وكان قدرنا أن نحيا في قوقعة واحدة مع الألم، لم يقبلنا

---

*تشير الإحصائيات إلى أن عدد الأشخاص الذي تعرضوا خلال الحروب لبتر في الأطراف منذ العام 2011 تجاوز الأربعين ألفًا في فلسطين وسوريا وحدهما، أغلبهم من الشباب والأطفال ناهيك عما تتسبب به الحوادث والأمراض. ومما لا شك فيه أن تركيب الأطراف الصناعية مكلف جداً وإذا أجبرتك الظروف على الوقوف في طابور الانتظار فستقضي عمرك داعيًا أن يسعف الأمل الأجل!

الوطن ولم يلتفت! وطن لا يريدنا إلا أمواتًا .. أو أقوياء .. وطن جاحد!»

ولم تسعفني في ذلك الوقت لمواساة روحه الثائرة سوى ثورة الأستاذ أحمد مطر في «يسقط الوطن!»:

«نموت كي يحيا الوطن

يحيا لمن ؟

نحن الوطن !

من بعدنا تبقى الدواب والدِّمَن

نحن الوطن !

إن لم يكن بنا كريماً آمناً

ولم يكن محترماً

ولم يكن حُراً

فلا عشنا .. ولا عاش الوطن!»

وتركته يبتسم لكن عينيه ملونة بالأسى وكذلك عينيّ...

في ركن آخر رأت محمد ابن السادسة عشر الذي أصيب بسرطان في المخ أدى إلى تلف عصبه البصري ففقد نور عينيه. عندما جاء للمؤسسة كانت عينه اليسرى تبصر بعض النور لكنها لم تصمد أكثر من بضعة أشهر. لدى استفاقته من الصدمة سيطرت عليه حالة من الغضب فحطّم كل ما طالته يمينه، كانت حالته هستيرية استدعت حقنه بالمهدئات لمدة

ثلاثة أيام. والدتـه المكلومـة لم تفارقـه ولم تتوقـف عـن الـدعاء والـصلاة وقراءة القرآن على روحه الثائرة طمعًا في عفو الله ورحمته. الطفل المسكين كان لابد له أن يعتاد الظلام ويبرأ من تأثير العلاج الكيميائي الذي خضع له.

السلام على محمد، على روحه، على قلبه، على عينيه. والسلام على كلِّ محمد.

وحين بدا أنه من الصعب مواصلة الحديث عن كل هذا الكم من الأسى قال خالد:

- أنتِ تعايشين المعاناة كل يوم، لابد أن ذلك مرهق للروح .. أنـا أستسلم، اكتفيت!

- هل ستغادر؟

- هل نتناول الغداء معاً؟

- أخشى أنـه لا يمكـنني ذلـك فـلا زال لـدي الكـثير ممـا يجـب إنجازه لهذا اليوم لكنني على يقـين أن خالتـك ستـسر جـداً إذا شـاركتنا الغداء في يوم العطلة

«لبقة!»

- لا أستطيع أن أقول لطعام خالتي لا

- جيـد إذن سـأخبرها بـذلك. هـل ستمر علـى المـدير في طريـق

- كلا سأتصل به هاتفياً. بلغيه تحياتي

- سأفعل .. إلى اللقاء

* * *

في ذلك الوقت من النهار يكون ضغط العمل في حالة الذروة لذلك كانت كيان في حالة حركة مستمرة ومجهود لا يتوقف لإتمام جميع المهام المسجلة على لائحة أعمالها ولم تكن في مزاج يسمح باستيعاب سماجة أحد، لكن التعامل مع تلك المنغصات من هذا أو ذاك سواء من الزملاء أو العملاء يعتبر مهمة أساسية في كل مكان عمل ما لم نكن من أولئك المحظوظين جداً الذين تمر حياتهم المهنية بهناء وسلام. قد تكون هذه نقطة سلبية لكن إيجابيتها تكمن في تعليمنا الصبر وتدريب الذات على تحسين السلوك والمهارات لتقليل المتاعب ومواجهة الأزمات على المستوى الشخصي والعملي. فيما هي تغوص بين هذه الأوراق وتلك، رن هاتف مكتبها فأدارت عينيها بنفاذ صبر بينما تستمع إلى المتحدث على الجانب الآخر ثم نهضت حاملة بعض الأوراق للتوجه إلى مكتب في آخر الرواق. حادثته مساعدته الخاصة بالهاتف الداخلي لطلب الإذن بدخولها فجاء منه الإذن بذلك. ألقت عليه كيان تحية الصباح بفتور ووضعت على مكتبه بعض الأوراق.

- هذه هي الأوراق التي طلبتها، أستاذ أسامة

- ما يهمني هو تفسير كيف أنك تتخذين قراراً دون الرجوع إليّ!

- أنا تصرفت بعفوية بما أملته عليّ إنسانيتي ولم أتوقع استياءك. المسألة بسيطة والفتاة كانت في حالة سيئة فاشتريت الاسطوانات وتركتهم يشاهدون الفيلم على شاشة العرض في قاعة الترفيه

- ثمن الاسطوانات لم يكن على لائحة المصروفات، هذا أولا وثانياً القرارات المالية تخصني أنا

- أستاذ أسامة المسألة لا تتطلب كل هذه التعقيدات. يمكنك اعتبار الاسطوانات هدية مني

- أنا يهمني توضيح المبدأ آنسة كيان وسننسى الأمر على ألا يتكرر!

- شكراً لك، المبدأ أصبح واضحاً، هل أستطيع الانصراف إلى عملي الآن؟

- من هو ذلك الذي رافقته بالأمس؟

«يا لقلة ذوقك»

- اسمه د. خالد الفقيه

- وما هي مناسبة تشريف مؤسستنا بهذه الزيارة؟

- أنت تعرف أن المؤسسة ترحب بجميع المهتمين
- لم يخبرني أحد بأننا في انتظار ضيف هذا الأسبوع
- أنت لم تكن موجوداً لذلك تحدثت مباشرة للأستاذ عماد وهو رحب به وبحضوره
- وماذا يريد الدكتور من هذه الزيارة؟ شكله لا يوحي بأنه مهتم!
- بل هو مهتم وبإمكانك سؤال الأستاذ عماد عن نتائج هذه الزيارة

رفع حاجبيه بشكل يوحي بالسخرية لكنه عندما لم يجد ما يضيفه قال:

- أرسلي الملف الخاص بهيثم لمساعدتي
- سأفعل، بعد إذنك

خرجت من مكتبه ولسان حالها يقول: «وكأن هذا اليوم ينقصه تعليقات السيد أسامة» .. لكنها أصرت على ألا تعكر صفوها بسبب ذلك اللزج!

هي لا تفهمه مطلقاً فتارة يحاول التقرب إليها باللطيف من الكلام وأحياناً أخرى -كاليوم- يعاملها بمنتهى الصفاقة. وكأنهما في سجال مستمر أيهما يثبت أنه الأفضل، هي لا تهتم لكنه يصر على تكرار

الموقف تلو الموقف. اعتقدت انه ربما لديه عقدة نقص او انفصام في الشخصية، لكن البلاء هو وجودها هي تحت رحمة مزاجه. رغم أنها لا تعطيه أي قدر من الاهتمام وبل وتحاول تجاهله في كل المناسبات المكنة لكنه مستمر في إزعاجها.

* * *

إنه صباح الجمعة، الشمس مشرقة والجو دافئ، جلست كيان مع والدتها وأخيها لتناول الإفطار في شرفة المنزل. قالت الوالدة:

- دعوت خالتك وعائلتها لتناول طعام الغداء

- لكن ماما ليس لدينا الكثير من الوقت لتحضير وليمة، لماذا لم تخبريني سابقاً؟

- حدث ذلك بعفوية دون تخطيط مسبق، خالد اقترح الشواء في الحديقة، علينا إعداد المقبلات والعصائر والشباب يقومون بتحضير المشويات

- آه، هكذا يصبح الأمر أقل خطورة

ضحك لؤي على تعليق أخته وقال:

- لو تكفين عن القلق كيان ستكون الأمور بخير، بطريقة أو بأخرى

- أنا لا أحب المفاجآت لؤي

- وهل توجد فتاة لا تحب المفاجآت؟

- أنا لم أقصد ذلك النوع من المفاجآت، لا تخلط الأمور

تجاهلها تماماً وتوجه لوالدته:

- هل تحتاجين شيئاً من الخارج ماما؟ هل أحضر شيئاً في طريق عودتي؟

- كلا بني، لدينا كل ما نحتاج. عليك فقط إخراج المعدات من المخزن الخلفي. كيان أردت كذلك صنع بعض الحلويات

- لا بأس ماما، نبدأ بعد تناول الفطور

لاحقاً في المطبخ عايرت كيان الراديو على برنامجهم الإذاعي المفضل بينما جلست والدتها على كرسي خلف طاولة في الزاوية التي تطل على الحديقة الخلفية. صنعت كيان أنواعاً مختلفة من الكعك بينما أعدت والدتها اللحوم والمقبلات. تم إنجاز كل الأعمال والتحضيرات مع صوت المساجد يرتفع بأذان الظهر فتوجهت كلٌ منهما إلى غرفتها للاستحمام والاستعداد للصلاة ومن ثمّ استقبال الضيوف.

بعد أن صلت الظهر تلكأت كيان أمام خزانة ملابسها تفكر فيما سترتديه من ثياب، واستقر رأيها أخيراً على فستان من الجينز الخفيف وغطاء رأس يختلط فيه الأصفر والأزرق والأبيض وحذاءٍ رياضي. مع زينة خفيفة ظهرت بمظهر طالبة مدرسة لكنه ليس عيباً أن تبدوَ أصغر

سناً، أليس كذلك؟

حوالي الساعة الثالثة كان لؤي يدخل بصحبة خالد إلى بوابة البيت، كلاهما نفس الطول تقريباً لكن الشكل العام يختلف تماماً. خالد أكثر أناقة، قامته منتصبة وخطواته واثقة. كانت كيان تهبط درجات السلم الخارجي للبيت حين انتبها لصوت خطواتها فرحبت بهما وأخذت تبحث بعينيها عن خالتها وسلمى التي اندفعت كالصاروخ من خلفهما قائلة:

- كيان اشتقت لكِ
- أهلاً أيتها الشقية كيف حالك؟
- بخير وأنتِ؟
- وأنا بخير. تعالي نحمل الأدوات للحديقة

أطلّ خالد برأسه من باب المطبخ يسأل إن كنّ بحاجة للمساعدة وعندما رآها تحمل حافظة المشروبات الباردة قال:

- دعيني آخذها للخارج. هل هناك شيءٌ آخر؟
- خالد خذ هذه الأطباق معك من فضلك
- هاتي أيتها المزعجة
- أنت عرضت المساعدة على كيان ولم تقل أنها مزعجة!

تجاهل تماماً أخته -المزعجة فعلاً- وغادر إلى الحديقة ليراهن لاحقاً

على طاولة الغداء حيث تبادلوا أحاديث شتى. سأل خالد:

- كيان هل تنجحون في مساعدة كل الحالات التي تلتحق بالمؤسسة؟

- في الغالب ننجح، لكن هناك بعض الأطفال يستمرون في حالة الاكتئاب لفترة طويلة رغم كل محاولاتنا لمساعدتهم سواء بإشراكهم في برامج ترفيه ودورات تدريبية أو بإتباع نصائح المتخصصين الأجانب الذين يقومون بزيارة المؤسسة من آن إلى آخر

- عمل شاق وحقيقة لا أحسدك عليه

- أنا أتمنى لو أستطيع المساعدة أكثر وكما قالت الشاعرة فدوى طوقان:

«لو بيدي
لو أني أقْدر أن أقْلِبه هذا الكوكبْ
لو أني أملك أن أملأه هذا الكوكبْ
ببذور الحبْ
فتعرِّش في كلّ الدنيا
أشجار الحبْ
ويصير الحب هو الدنيا
ويصير الحب هو الدربْ

لو بيدي

أن أمسح عن هذا الكوكبْ

بصمات الفقرْ

وأحرّره من أسْر القهرْ

لو بيدي

أن أجتثّ شروش الظلمْ

وأجفّف في هذا الكوكبْ

أنهار الدمْ

لو أني أملك لو بيدي!»

كان خالد يفكر «هذه الفتاة لديها عمق إنسانيٌّ رائع»

بينما قال لؤي:

– هذا تفكير نبيل كيان لكنك تعلمين أن أرض الواقع تجهض كلّ الأمنيات

– على العكس لؤي، قيل قديماً «لو تعلق قلب المرء بالثريا لنالها!»

– خالد أنت لا زلت ملفوفاً بالأمل، بعد مدة من إقامتك هنا سترى الأمور بعينٍ أخرى وستكون لك آراء مختلفة

– قد يكون أمر التغيير صعباً لكنه بالتأكيد ليس مستحيلاً

- خالد، حتى الثورات لم تنجح في تغيير الواقع وفي أكثر من قُطْر عربي

- لكي تنجح الثورات لؤي لابد أن يُؤهل الانسان أولاً، أن يُثقف، أن يُعلم أن هذا الكوكب يتسع له ولي حتى لو اختلفنا .. ليس من الحكمة أن ترفع سقفاً على قاعدة مهترئة!

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

أجابته كيان

- أن نبدأ بالتربية، لابد أن أكون أنا كأب أو أم على وعيٍ كافٍ لأنشئ فرداً متفهماً، متقبلاً للآخر ومحترماً له حقه في تبني رأي مختلف، لكننا نتمنى في نفس الوقت أن يكون رأياً عاقلاً منطقياً غيرَ محكوم بجهل أو تعصب

- أنتِ تحلمين

- أنا .. لدي أمل!

- يا إلهي ألا تملون من هذه الأحاديث؟!

قالت سلمى وقد بدا عليها الضجر فالتفتت لها كيان قائلة:

- بعد الغداء نفعل ما تريدين

تهلل وجه الصغيرة وقالت:

- هل لديك بعض المجلات؟ أريد اختيار تصميمات لملابس

جديدة

- هل تمزحين، طبعاً لدي!

تركت سلمى في غرفتها وذهبت كيان لإعداد شاي العصر لكنها لم تجد أحداً في الخارج فتوجهت إلى الحديقة حيث خالد يجلس قرب أزهارها ويبدو عليه الشرود. أصدرت صوتاً خفيفاً لتلفت نظره فاستقام مباشرة حين رآها

- كيان، تعالي اجلسي

- أين الجميع؟

- ماما وخالتي في الحديقة الخلفية ولؤي يجري اتصالاً هاتفياً

- في الواقع أردت معرفة إن كنتم ترغبون بشرب الشاي أو القهوة

- دعينا ننتظر قدومهم .. كيف أنتِ؟

- أشعر بالصداع من التقليب في صفحات المجلات والانترنت للبحث عن تصاميم جديدة لسلمى. إنها لا تمل!

قالت مازحة

- شكراً للطفكِ معها

تتدلل عليّ

- أكاد أحسدها

قال بعفوية مأخوذاً برقتها وجمال المشهد بين هذه الزهور. شاهدها ترمش بعينيها بينما تقول:

- جميلة هذه الأزهار، أليس كذلك؟

تريد تغيير مجرى الحديث لكن هو كان له رأي آخر فسألها:

- هل يأتي أعمامك للسؤال عنكم؟

- ماذا؟

قالت بدهشة فأعاد سؤاله:

- أعمامك، هل يأتون لزيارتكم؟ هل يتصلون بكم؟

- في الأعياد، نعم يأتون. والاتصالات الهاتفية بيننا لا تنقطع، إنهم أهلنا!

- وعمار؟

الآن أنبأه اتساع عينيها أنه سأل السؤال الخطأ لكنه أراد أن يطمئن. لم تجبه فسألها سؤالاً أكثر جرأة رغم أنه تلكأ في إكماله:

- هل كنتِ .. هل كنتِ تحبينه كيان؟ هل .. لا زلتِ؟

الآن أجابت مباشرة دون توانٍ

لي بعض الرقة، لكن لا لم تتجاوز علاقتي به علاقتي بأبناء أعمامي الآخرين

كان يحبس أنفاسه ويشعر بالاختناق مع كل كلمة تخرج إلى أن أتمت جملتها فتنفس بعمق وأريحية ثم قال:

- إذن من أين جئت بتلك الأفكار عن الحب؟

ابتسمت ابتسامة ملائكية وقالت:

- أوه .. تلك!.. من مخيلتي!

واستمرت في التبسم ثم أضافت لأن ملامح وجهه عكست بشكل واضح أنه يحتاج بعض التفصيل

- من والدي رحمه الله .. من صديقاتي .. من الكتب

- كانت علاقتك جيدة بوالدك؟

كانت الجملة نوعاً من الإقرار أكثر منها سؤالاً لكنها قالت:

- كان صديقي!.. سأذهب لأرى أين يختبئون

ولم تمهله الرد، كانت تحتاج لبعض العزلة. رغم مرور هذه السنوات إلا أن الحزن في قلبها لم تضمحل شعلته. في هذه الساعة يرفرف قلبها لحزن لا تدعي أنها تجهل أسبابه. كانت تناجي والدها:

«هذه الساعة من النهار تشبه تلك الساعات الكثيرة التي قضيناها معاً، لون السماء الصافي ونسمات الريح الباردة ورائحة زهر الياسمين، وأنغام

تصدح من هنا وهناك اعتدت سماعها في حضرتك، أيها الغائب الحاضر. أعظم الحزن يا أبي هو ذلك يمتزج بمرارة الغياب القسري لكن ساعات الحزن هذه قصيرة بفضل ملكة الخيال التي منحها الله لنا. هل أخبرك شيئاً؟ هذا الخالد أبويٌّ بالفطرة، أعني أنه يشعر من حوله بالأمان ويحتضنهم بعينيه لتشجيعهم أو حمايتهم ويعرف تماماً كيف يرضي أمي وخالتي حال غضبهما. بالرغم من تحفظي في الحديث عن المشاعر إلا أنه حاصرني ذلك المساء ودفعني لقول رأيي دفعاً والذي ربما لم يعجبه ولكني أؤمن به فلم أستطع المراءاة. واليوم يريد أن يعرف إن كنت أحتفظ بمشاعر لعمار».

رفعت رأسها لتحدق في الفراغ الذي يمتد أمامها مع شهيق وزفير هادئين لكن عميقين قالت: «أنا بخير يا أبي وقلبي يرفرف لفرحٍ أجهل أسبابه، صدقني».

لاحقاً، لحظة توديعهم همس لها خالد ب «أنا آسف كيان» **وهي تعلم يقيناً أنه يقصد كونه ذكرها بوالدها وكأنها نسيت!**

* * *

تنظم مؤسسة البشير كلَّ ربيع حفلاً خيرياً كبيراً يهدف إلى الترويح عن الأطفال وإعطاء الفرصة للناس لمعرفة أن ذوي الاحتياجات الخاصة بشراً يتمتعون بكل الصفات الإنسانية وإن فقدوا الوظيفة الطبيعية لهذا الجزء من الجسم أو ذاك، وأيضا لجمع التبرعات من أجل بعض البرامج

التي تخطط لها المؤسسة وتفوق قدرتها المادية.

كانت كيان مسئولة عن إعداد فقرات البرنامج وتقديمه وقد تطلب منها الإعداد جهدا كثيرا اضطرها إلى البقاء في مكتبها لساعات طويلة بعد أوقات الدوام الرسمي ولكنها في النهاية أتمته وكانت ومديريها راضييْن عن الاستعدادات. قبل الحفل بيومٍ واحد فوجئت باتصال من المحافظ يخبرها بأنه لن يستطيع الحضور لظروف طارئة، وبالتالي يجب أن تُلغى الكلمة التي كان مكلفاً بإلقائها معرباً عن بالغ أسفه لذلك. كانت الساعة تتجاوز الرابعة عصراً وأصبح الوقت متأخراً جدا للبحث عن بديل. مدير المؤسسة والذي صادق على الصورة النهائية للبرنامج كان قد غادر مبكراً لارتباطه بغداء عمل، كما قالت مساعدته، وكان لابد لكيان من أن تجد الحل بنفسها فاضطربت أكثر. هداها تفكيرها إلى خالد فهو بالتأكيد يستطيع مساعدتها خصوصاً وأن معارفه كُثُر. اتصلت بمكتبه دون جدوى كما توقعت، فالوقت متأخر، لذلك لجأت إلى الاتصال بهاتفه ولسوء حظها لم يجب. اتصلت بخالتها فأخبرتها أنه سيتأخر اليوم في المكتب ولم تنتظر كثيراً أخذت حقيبة يدها قاصدة مكان عمله. حين وصلت كانت الساعة تقترب من الخامسة فسألت الحارس الذي أكد لها أن خالد لم يغادر بعد مكتبه فدخلت. كان الهدوء يعم المكان إلا من صوت مكيف الهواء وقابلت في نهاية الرواق صديقه وزميل عمله زياد

- أهلا كيان، كيف حالك؟
- بخير الحمد لله وأنت؟
- وأنا بخير، لابد أن طارئ أتى بك إلى هنا
- في الواقع نعم، أحتاج مساعدة د. خالد
- تجدينه في مكتبه، السكرتيرة غادرت ادخلي مباشرة
- شكرا لك

ودعته وتابعت طريقها إلى مكتب المدير. تفصل غرفة السكرتارية عن غرفة المدير صالة صغيرة لاستراحة العملاء. قبل أن تطرق الباب رأته ممدا على أطول الأرائك في الصالة يغطيه غطاءٌ خفيف، لابد أنه أحضره معه للطوارئ. يبدو خالد في هذا الحال مسترخياً وأصغر عمراً، ابتسمت لرؤية قدميه ظاهرتين من تحت الغطاء، لابد أنه يشعر بالحر رغم وجود المكيف. فتح خالد عينيه على ابتسامتها فشعرت بالحرج الشديد واستدارت لكنه ناداها مستغرباً وجودها في مكتبه ونهض من فوره قائلا:

- انتظري دقيقة سأغسل وجهي، لن أغيب

شعرت مرة أخرى بالحرج حين رأته يعود بمنديل يجفف به وجهه وشعره وأزرار قميصه العلوية مفتوحة فنظرت إلى الأرض وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها بينما اتجه هو إلى مكتبه. رفعت رأسها

أخيراً حين توجه إليها بالحديث

- ما الأمر كيان؟

كان قد صفف شعره وأعاد مظهره العملي مجدداً. عند سماعها لسؤاله تذكرت المشكلة التي أتت بها إلى هنا فبدأت تشرح له الموقف بكل جدية ويبدو أنه لاحظ اضطرابها فرفع يده مبتسما وقال:

- على رِسلِك لم يحدث شيء، سنجد حلاً اطمئني

- لا نملك الكثير من الوقت خالد وأرجو أن تسعفك ذاكرتك بشخص يمكنه أن يقدم فقرة مماثلة

فابتسم مجدداً مما أثار استغرابها

- يبدو أنكِ .. لا تفكرين بي كمرشح؟

- آه .. ليس الامر كذلك لكني لا أريد أن أثقل عليك، أعلم أنك دائم الانشغال

- شكرا لتعاطفك

قال مازحاً وأكمل:

اختيار الموضوع. انظري، تحدثت مرة عن الثقافة الاجتماعية في الشرق والغرب، يمكنني إضافة بعض النقاط التي تقارن نظرة المجتمعين الغربي والشرقي لذوي الاحتياجات الخاصة والاسهاب في الشرح ليصبح الموضوع شاملا ومناسبا، ما رأيك؟

- أنت رائع،

هذا ما قالته بعفوية كعادتها في الحديث مع لؤي لكنها أتبعته بقولها

- أعني هذا مناسب جدا لن أحصي لك الثناء

ولرفع الحرج قال:

- مطلوب منك مساعدتي ببعض الإحصاءات عن ذوي الاحتياجات الخاصة في بلادنا، أتصور أنك تملكين البيانات اللازمة

- بالطبع

- جيد. أرى أن نذهب إلى البيت لان زياد على وشك المغادرة والعم عاطف كذلك

في اليوم التالي استيقظت كيان باكرة وهيأت نفسها للعمل وقبل خروجها اتصلت بخالد لتطمئن على سير الأمور فهي لا تريد مزيدا من المفاجآت.

- لابد أن يومي سيكون جميلا كونه ابتدأ باتصال من ابنة خالتي العزيزة

«هو بالتأكيد يجاملني»

- أرجو ذلك حتى يمر يومي أنا بسلام، لا أريد أي مشاكل
- يا لكِ من...

ولم يكمل بل قال:

- نلتقي بعد العصر
- مع السلامة

المقرر أن يبدأ الحفل في الثالثة لكن مواعيد خالد لن تسمح بحضوره قبل العصر فما كان من كيان إلا أن تستسلم واثقة أنه لن يتأخر عن موعده. كانت خطتها أن تعود بعد الظهر لتغيير ملابسها لأخرى مناسبة للحفل حضرتها منذ الأسبوع الماضي. كانت مزيجاً من درجات اللون الأزرق رسمية إلى حد كبير وأنيقة إلى حد أكبر وبعد أن اعتنت بمظهرها جيدا كانت تستقل السيارة متوجهة إلى مكان الحفل الذي يقام في أحد الفنادق القريبة من مقر المؤسسة. الجزء الاول من الحفل سيقام في الداخل وبعد الغروب يبدأ الجزء الثاني الذي يشمل تناول وجبة العشاء وسيكون في الحديقة التي تحتوي على مسبح وبعض نوافير الماء التي

تساعد على تلطيف الجو.

قبل الموعد المحدد له بعشر دقائق استقبلت كيان من خالد رسالة قصيرة يخبرها فيها أنه قد وصل للتو وسيتوجه للقاعة المحددة خلال دقائق ولأن تواجدها داخل القاعة ضروري لتفادي أي طوارئ فلم تستطع رؤيته. توجهت لمنصة العرض وأعلنت أن الفقرة القادمة سيقدمها الدكتور خالد الفقيه والذي كان يصعد المنصة من الناحية الاخرى فارتفع صوت الجمهور بالتصفيق والصفير وشكّت كيان إن كانوا فعلا قد سمعوا عنوان الفقرة المقررة. أخيراً تركت المكان للضيف ووقع نظرها عليه فأومأ لها بدوره وانصرف لتحية الجمهور.

ابن خالتها هذا يعرف الطريق إلى الجمهور وبطبيعة الحال تقصد منهم الفتيات. مع حجم هذه الاناقة وهذا الاهتمام الملفت لا تعرف كيف ومتى استطاع الوفاء بمواعيد عمله وتحضير نفسه من أجل هذا اللقاء. بذلك الطقم البني وتصفيفة الشعر العصرية بدا كأنه متوجه إلى جلسة تصوير وليس ندوة ثقافية! لكن أشد ما يلفت النظر إليه هو تلك الطريقة التي يعبر فيها عن فكرته، هدوء وثقة لا مثيل لهما خاصةً إذا تخلل ذلك ابتسامته المعهودة. وبانتهاء ذلك العرض علا التصفيق والصفير مرة أخرى حتى شعرت كيان أن الحاضرين ما عادوا يهتمون بفقرات البرنامج التالية وقد يكونوا نسوا حتى السابقة ولم يبقَ لديهم سوى خالد وما يتعلق به من قول وفعل. تجرأت ودعتهم للهدوء الذي حلَّ بعد

فهزت كاميليا كتفيها معبرة عن عدم اهتمامها بينما تقول:

- هذا الطقم يناسبك جداً د. خالد
- شكراً لك، هذه المناسبات تتطلب بعض الابتذال
- لكنه لا يبدو مبتذلا مطلقاً

قالت ضاحكة ومرة أخرى لم يعجبه مجرى الحديث فالتفت إلى كيان سائلاً:

- متى تغادرين كيان؟ سوف أقلك في طريق عودتى فكما ترين قد تأخر الوقت
- حسناً، سأغادر في حوالى العاشرة

نظر إلى ساعته وقال:

- أمامنا ساعة سأبحث عن مدير المؤسسة لمناقشة بعض الامور
- ستجده غالباً في قاعة الاجتماعات الخاصة بالفندق
- أراك غدا كاميليا

تركها مع كاميليا التى استمرت في النظر إلى الاتجاه الذي سلكه حتى بعد أن اختفى في الزحام ثم التفتت إليها وقالت:

- هل هو صارم هكذا على الدوام؟
- تقصدين خالد، لا أعتقد أنه صارم، هو فقط يحدد أولوياته ولا يقحم نفسه في أحاديث ساذجة

احمرت وجنتيها، فوضحت كيان

- أعتقد أنه يرى أن أحاديث الفتيات ساذجة في الغالب ولابد من أن يُجبر على تغيير رأيه

وابتسمت لها فابتسمت الأخرى وقالت هامسة:

- أرجو أن يشعر بى يوماً

- حظاً موفقاً عزيزتى واعذرينى سأذهب لتفقد سير الأمور في الداخل

تركتها وهى تفكر فيما قالته. في الحقيقة هى فتاة مهذبة وجميلة جداً ولم تكن كيان صادقة حين تمنت لها حظاً جيداً، بشكل عام هى تتمنى السعادة للجميع لكنها لا تتمنى أن تكون هذه الفتاة الشخص المميز في حياة خالد. قالت سابقاً أن التفاف الفتيات حوله أزعجها لأنه ابن خالتها ولكن الحقيقة تبدو أعمق من ذلك بكثير.

بعد العاشرة بقليل كانا في طريقهما إلى مرآب السيارات

- اذن، كيف كان يومك؟

- الحمد لله مرّ كل شيء بسلام وشكراً جزيلاً لك

- على الرحب

- أعتقد أنك حصلت على الكثير من الشكر والاعجاب وهذا

- وهذا يعني؟

سأل مضيقاً عينيه

- أقصد أنك متخم بكلمات الشكر والاعجاب فلا حاجة بك إلى شكري وامتناني لكني أقدمه من باب العرفان بالجميل رغم ذلك

- أها فهمت، ولكني بهم لا أهتم!

- ومتخم بالغرور أيضاً؟

قالت مازحة

- إنه النضج أيتها الشابة

أجاب مشيراً بيده في حركة تمثيلية فضحكت من كل قلبها على الطريقة التي ألقى بها جملته وانتقل الضحك منها إليه ثم قال:

- بالمناسبة يبدو أنكِ بارعةٌ في عملك وقد أعجبتني طريقتك في السيطرة على الامور بالإضافة إلى لباقتك مع الضيوف رغم سخافة بعضهم

شعرت بارتفاع درجة حرارتها وبدا ذلك جليًّا على وجنتيها، فقالت:

- شكراً لك، أعتز بهذا الاطراء

وتابعت ناقلة دفة الحديث إلى ناحية الأخرى

- في تلك الزاوية ركنتُ سيارتي. أنا لم أشأ احراجك امام مستخدَميك لكني سأعود بسيارتي كما أنني لا أود إعطاء الناس خيطاً لقصة جديدة، فكما تعرف هم يحبون التأليف والتحريف ولو من أجل دفع الملل وإضافة بعض الدراما للحياة الرتيبة التي يعيشونها. ونقطة أخيرة، بعض الدروس في الحياة علمتني ألا أقبل من أحد -مهما كان ومن كان- وضعي أمام الأمر الواقع لذلك أتمنى منك في المرات القادمة - إن وجدت- أن تقدم عرضكَ على شكل سؤال لا أمر

فاجأته تلك النقطة الأخيرة وأراد أن يوضح أنه لم يقصد إلقاء الاوامر وهي في الغالب ليست طريقته لكن نبرة الألم في صوتها، رغم ابتسامتها جعلته يومئ برأسه تفهماً وقال:

- لكِ ذلك، لكني سأتبعكِ بسيارتي فهو نفس طريقي على أية حال

- أقدر لكَ هذا وشكراً لك مرة أخرى، طابت ليلتك

أومأ برأسه ولوح بيده مبتعداً في اتجاه سيارته

* * *

كان يراقب كليهما من آنٍ لآخر واستنتج من الانفعالات الظاهرة على كل منهما والطريقة التي ينظر بها أحدهما للآخر أن علاقتهما لم تقف عند حد القرابة بل تجاوزت ذلك إلى الاهتمام بل والحب أيضاً وهذا

بالنسبة له سيئ جداً. كانت مراهنته على أن فرصة كيان لإيجاد الفتى الذي تحلم به تتضاءل وهذا سيدفعها في النهاية إلى الموافقة على طلبه لأنه بالتأكيد سيكون أفضل الفرص وفيما بعد سيجعلها تندم على تجاهلها له وربما يسامحها -الأمر مرهون باستجابتها- لكن هذا الخالد خرب عليه كل مخططاته.

«يجب عليّ أن أتصرف لكن كيف؟»

أخرج هاتفه النقال واتصل بأحدهم ليقول له بعد ثوان:

– مرحباً لوسي، هل تستطيعين القدوم إلي في شقتي؟ أحتاج إلى حرق بعض الوقت .. جيد في انتظارك لا تتأخري

وراح يدخن سجائره واحدة بعد الأخرى وعقله يفكر في خطة تسقط صريعة لسبب أو مائة ليعيد الكرة من جديد مع فكرة ثانية. أوقفه عن ذلك التفكير الشيطاني صوت جرس الباب ليشغل وقته مع ضيفته.

– لا تبدو رائق المزاج

– دعيني وشأني لوسي

– حسناً، معك رقم هاتفي

لم يكلف نفسه حتى عناء الرد عليها بينما توجهت هي إلى الباب تهز رأسها متعجبة من حاله.

* * *

كانت مع زميلتيها في المكتب عندما جاءت إليهن سعاد ببطاقات دعوة حصلت كلٌ منهن على واحدة منها فسألتها كيان :

- ما هذا؟

- بطاقة دعوة لحضور حفل زفاف أختي وأريد منكن جميعاً الحضور رجاءً، لن أقبل أعذاراً!

- لكن سعاد...

- لا كيان بدون لكن، لا تبدأي أرجوك، يجب أن تحضري، وأنتن أيضاً يا فتيات

وانطلقت خارجة من المكتب دون إضافات. ألحت عليها البنات بالحضور فلم تجد من الموافقة بداً على أن ترافقها سلمى .

وبين جنبات ذلك المكتب

- تم ما تريده أسامة

- دون أن تثيري الريبة؟

- نعم

- جيد إذن تبقى مسألة الصورة وهذه عليك أن تتكفلي بها أيضاً

- فقط لو أعرف ما الذي تنتويه

- عليك أن تعرفي ما أريده منك فقط عزيزتي، اتفقنا؟

- كما تشاء أسامة، بعد إذنك
- لا تنسيْ قهوتي

خرجت من عنده وهي تلعن ذلك الذي يجعلها تذعن لأوامره، فقط ليكون راضياً عنها ولا يهم أن تكون هي راضية ام ساخطة.

رافقت سلمى كيان إلى الحفل وقضت الفتيات وقتاً ممتعاً، صحيح أنهما لم تطيلا البقاء لكنهما استمعتا بفقرات برنامج الحفل. كان الحضور فقط من السيدات والعروس بدت رائعة والثوب بلونه النيلي الباهت يناسبها تماماً. حقيقة كانت كل الفتيات والسيدات على درجة عالية من الاناقة بأثواب براقة وقصات شعر عصرية ولم تكن هي وسلمى استثناءً.

* * *

عند فجر يوم جديد استيقظت من نومها كيان على كابوس مرعب فتوضأت وصلت وتلت بعض الأدعية وبعدها بساعتين توجهت إلى مقر عملها بلا همة أو نشاط رغم كل محاولاتها. انتهى اليوم وعادت إلى البيت دون إبطاء وكعادتها فتحت صندوق البريد لفحصه فغالباً ما يكون محتواه موجهاً إليّها حتى فواتير الكهرباء والهاتف لأنها من أنهت

المعاملات حين كان لؤي مسافراً. لم يحتوِ الصندوق سوى على مظروف كبير كُتب عليه بخط اليد "إلى العزيزة كيان رشيد" بدون عنوان، يبدو أن المرسل اهتم بإيصاله إلى هناك بنفسه.

في الداخل عم الهدوء أرجاء المنزل فوالدتها تحب أن تنام فترة ما بعد الظهيرة خصوصاً في هذا الطقس الحارق. توجهت إلى غرفتها ومنها مباشرة إلى الحمام، اغتسلت وارتدت ملابساً مريحة ثم صلت فرضها وإذا بهاتفها النقال يرتفع رنينه، كان لؤي

- أين أنت كيان؟
- مرحباً لؤي، أنا في البيت
- أنا قادم

لم يتفوه بكلمة أخرى لكنها سمعت بعض الفوضى قبل أن ينقطع الاتصال، ربما كان أحدهم يتحدث إليه.

* * *

صاعقة تلك التي حلت به عندما فتح الظرف ورأى ما فيه. كيف له أن يحتمل مثل هذا التشهير الرخيص بابنة خالته، بالفتاة التي يحب. وقع نظره على صورة لابنة خالته ،كيان بملابس لا ترتديها المرأة خارج حجرة نومها ولابد أن باقي الصور من نفس العينة. دون أن يفكر في الأمر مرتين كان على يقين تام بأنها صور ملفقة تمثل ادعاء وافتراء ممن

فقد أخلاقه وضميره. رغم المدة القصيرة التي عرف فيها كيان إلا أنه يثق بها كما يثق في نفسه تماماً وفي الواقع لو لم يكن على ذلك القدر من الثقة لما فكر في الاقتران بها. كان رأيه: «غياب الثقة بين المحبين يحيل الحياة جحيماً أزلياً! أفضل أن ألقي بنفسي في المحيط ليبتلعني موجه على أن أعيش يوماً في ذلك الجحيم المقيم، وأي عاقل سيفعل؟ جسور الثقة يجب أن تمد قبل بناء قلعة الحب وكيان برهنت لي مرات ومرات على أنها جديرة بها».

في الحال اتصل بلؤي الذي أكد له أنه استلم ظرفاً لكنه لم يرَ ما فيه بعد وسأله كيف عرف بأمره.

- هل تأتي إليّ أم آتي أنا إليك؟

- ما الأمر خالد؟

- سآتي إليك وسنتحدث، لا تفتح الظرف إلى أن آتي

وقبل مرور ثلاثين دقيقة كان في شقته، لؤي يملك شقة بالقرب من مقر عمله اشتراها لاعتبارات مستقبلية، لكنه يقيم حاليا في بيت والدته. وجده مكفهر الوجه أسوده فعرف أنه قد فض الظرف لتوه

- لماذا فعلتَ ذلك؟ لقد حذرتك

- ما هذا خالد؟ كيف يحدث ذلك؟

- نحن في عصر التكنولوجيا لؤي، كل شيء ممكن

- سأتصل بكيان

وبالفعل تحدثَ معها وعلم أنها في البيت

- تمهل لؤي لابد من مناقشة الموضوع لنجد طريقة لحل المشكلة، هكذا أمور لا تحل بالصراخ

- صراخ؟ بل سأقتلها

- لؤي، هل جُننت؟ ما الذي تقوله؟ ألا تعرف أختك؟

- وما الذي تراه يا دكتور؟

أغمض عينيه ونكس رأسه قائلاً

- في الواقع، أنا لم أستطع رؤية أكثر من صورة وأنا على يقين بأن هذه مكيدة يراد بها إيذاء كيان

- وبهذه الطريقة قد نجحوا تماماً، بهذه الطريقة يمكنهم حرق أي فتاة حتى لو كانت حورية بحر

- هذه طريقة قذرة لؤي والفاعل سينال عقابه

- هه، وماذا سيجدي ذلك، إنها سمعة فتاة، أنت لا تعرف شيئاً

- دعنا نذهب الآن وحافظ على هدوئك، رجاءً

وصلا البيت بعد وقت قصير وتوجها إلى غرفة الضيوف فوجدا كيان هناك في الانتظار وما إن رأتهما حتى هبت واقفة وسألت:

- ماذا حدث لؤي؟

فما كان من الأخير إلا أن توجه إليها وصفعها، ربما لم تكن الصفعة بتلك القوة لكن المفاجأة جعلتها تتمايل إلا أنها حافظت على توازنها وفي اللحظة التالية كان خالد يقف بينها وبين لؤي ثم قام بدفعه قليلاً ليتراجع وقال بحدة:

- ماذا تفعل لؤي، هل جننت؟ إن لم تتوقف سأضطر أنا إلى ضربك!

فقام لؤي بقذف بالمظروف في وجه كيان قائلاً:

- ما هذا؟

تحدث خالد بهدوء:

- اجلسي كيان

أشاحت بوجهها عنه وتوجهت إلى الكرسي حيث سقط الظرف فأسرع وقال مجددا:

- اجلسي كيان، أرجوك

فجلست وأخرجت محتوى الظرف وما إن وقعت عيناها على أولى الصور حتى شهقت وهبت واقفة إلى أقرب مرحاض، إنه شعور طبيعي بالغثيان.

- لؤي اذهب لترى إن كانت بخير أو سأذهب أنا

لم يحرك ساكناً فتركه خالد ولحق بها إلى المرحاض حيث كان الباب

مفتوحاً، نادى باسمها فلم تجب وسمع صوت شهيقها فدخل. كانت تستند على الحوض تاركة مياه الصنبور تنافس دموعها التي تتساقط بغزارة.

- كيان

ولم يكمل جملته فقد نظرت إليه ومن بين شهقاتها قالت:

- هذا افتراء بشع!

- أنا على ثقة من ذلك عزيزتي، دعينا نخرج من هنا

- لكن لؤي يصدق ذلك

- هو مصدوم فقط ويحتاج القليل من الوقت ليدرك الأمر

- ولم تختلف ردة فعلك عنه؟

- أأأ .. أنا أكثر خبرة منه كما أنني لا أتسرع في الحكم على الأمور. أيضاً لدي حدس لا يخطئ في الغالب

كانت تبكي بحرقة.

- كيان، أرجوك لا تبكِ، دعينا نفهم الأمر لنتبين من يقف وراء هذا الفعل المشين

- خالد، أمي ستموت لو علمت بذلك

- يجب ألا تعلم، أين هي الآن؟

- ذهبت لعيادة جارتنا سمية، أم أحمد

- جيد، عليك أن تلزمي غرفتك، لا تدعيها تراكِ بهذا المنظر حتى لا تشك بشيء وأنا سآخذ لؤي معي ولن أعيده إلى هنا حتى يستعيد رشده

لم تجبه، كانت تبكي

- كيان، أرجوكِ

- حسناً

- سأتصل بكِ

وتركها إلى لؤي الذي رفض في البداية مرافقته فسحبه معه قسراً عائدَيْن إلى شقته مرة أخرى. توجه خالد إلى المطبخ وأعد فنجانين كبيرين من القهوة فكلاهما في حاجة شديدة إلى التركيز والتفكير.

- تفضل لؤي

قال ذلك ليلفت نظره بينما يضع الفنجان أمامه على الطاولة.

- ليس لدي رغبة لأي شيء خالد

- نحتاج أن نفكر بروية والقهوة ستعيد لنا بعض التركيز، أرجو ذلك على الاقل

- فيم سنفكر، المصيبة ووقعت

- لؤي، من استلم الصور هم أنت، أنا، وكيان ولا أظن أنها وصلت لأحد غيرنا إلى الآن على الأقل. هناك من يريد ابتزاز كيان

لأسباب نحن نجهلها بينما هي بالتأكيد تعرفها أو تستطيع تخمينها. يجب أن نتحدث معها لنحصل على معلومات تفيدنا في تحديد هوية الفاعل أو تدلنا عليه. وجه كيان الظاهر في الصور يدل على أنها كانت في مناسبة ما ربما حفلة على الأرجح. تستطيع كيان بالتأكيد معرفة ظروف التقاط الصور ومنها يمكننا البدء بالبحث وراء الفاعل ودوافعه.

- أتعتقد فعلاً أن هذه الصور ملفقة؟

- بل أنا على يقين تام من ذلك. نحن في العصر الرقمي وتوجد العديد من برامج الحاسوب التي يمكنها تغيير الصور بأي طريقة تريدها كما يمكن كشف زيفها لكن ذلك لا يكفي لأن انتشار الصور سيسبب بلبلة نحن في غنى عنها وإذا ما أمسك الناس طرف قصة أشبعوها تأليفاً وتهويلاً

- ومن أين سنبدأ؟

- من عند كيان. سنتركها اليوم لتهدأ وترتاح وغداً صباحاً نلتقي، نحدد المهمات ونتوجه بعدها للعمل

- لابد أنها غاضبة مني

- أنت خذلتها لؤي ولها الحق في أن تغضب وعليك أن تبذل جهدك لاسترضائها. أنت تعرف أنها حساسة ومعتدة بذاتها في نفس الوقت لذلك ستأخذ منك أنت بالذات موقفاً، لا مناص!

- سأبذل جهدي

- جيد جدا، سأتصل بها أخبرها أن تحضر إلى شقتك غداً صباحاً لنقل عند السادسة والنصف ونحن سنبيت في شقتك الليلة

- بينما تتصل بها، سآخذ حماماً سريعاً

* * *

ذهبا وتركاها وحدها تلعق جراحها، لكنها لم تستطع البكاء، كانت غاضبة. شعرت بقهر شديد وحقد أشد على الدنيا وما فيها، كانت ساعة تملكتها فيها شياطينها، شتمت وصرخت وخربت غرفتها، أخرجت كبت السنوات الماضية منذ انفصالها عن عمار وحتى الآن. تلوم والد حبيبة وها هو لؤي يأتي بنفس ردة الفعل ولولا وجود خالد فالله وحده يعلم ما الذي ستكون عليه الحال. أخذت تتساءل: «لماذا تصر الدنيا على الوقوف في وجهي؟ لماذا؟ لماذا؟»

أحياناً يشعر الانسان بالحنق على الأقدار، قد يحدث ذلك في أشد لحظات الضعف الانساني لذلك كان لابد لها من إعادة برمجة الدماغ - والقلب- ليؤمن يقينا بأن الاقدار لم تسر الا في الاتجاه الذي يناسبه مهما كانت قساوتها، وذلك لحكمة بالغة لا يعلمها أنت ولا أنا.

سمعت رنين هاتفها ينبئ عن وصول رسالة قصيرة. كانت من خالد يقول فيها: «حافظي على هدوئك» تلفتت حولها يميناً ويساراً فلم تجد

شيئاً ومن شباك غرفتها لم يوجد ما يدل على أن أحداً في الجوار. «لابد انه حدسه مرة أخرى» فكرت كيان وبدأ عقلها يرسل إشارات أدركت من خلالها ما فعلته في الفترة القصيرة الماضية وشعرت بالخجل من نفسها. استغفرت الله وصلّت له، دعته ورجته حتى شعرت بالإعياء فانتقلت إلى فراشها واستسلمت للنوم.

أيقظها صوت هاتفها قبل منتصف الليل بقليل

– مرحباً كيان، يبدو أنني أيقظتك .. أنا آسف

– لا عليك خالد، أنقذتني من كابوس مرعب

– قلتُ لكِ قبلا، لا تقلقي كيان، سيكون كل شيء بخير

– إن شاء الله

– غداً صباحاً سنتحدث في شقة لؤي. هل تستطيعين الحضور عند السادسة والنصف؟ لكن دون أن تثيري ريبة خالتي

– آتي الآن لو أدى هذا إلى حل المشكلة بسرعة

– لا، أكملي نومكِ الان وغدا باكرا تكونين هنا. أنا ولؤي سننام في شقته. تصبحين على خير

– وأنت من أهل الخير .. وشكراً لك

* * *

جلست طويلا أمامه دون أن يتفوه بحرف ولا حتى السلام فصمتت

لصمته وطالت بهما الحال، إلا أنه تحدث أخيراً:

– أنا آسف كيان، سامحيني لقد لعبَتْ بإدراكي الظنون

لم تجبه فقال:

– يجدر بخالد أن يكون أخاك وليس أنا، موقفه يشعرني بالخجل من نفسي بل وبالعار، إن شئتِ

وأيضاً لم تعلق، فنهض متجهاً نحوها وقبّل رأسها راجياً أن تغفر زلته فما كان منها إلا أن وضعت رأسها على كتفه بينما يمسح هو على رأسها قائلاً:

– لا بأس حبيبتي ستُحل المشكلة وسننساها

– أرجو ذلك

– خالد يقوم بإعداد الفطور وبعدها سنتحدث

– يكاد يقتلني الشعور بالخجل

– لا داعي للخجل فهو لم يرَ سوى صورة واحدة وعلى عجل وفي النهاية ليس لكِ من الصورة سوى الوجه. وبطبيعة الحال يجب أن تكوني موجودة فأنت من سيساعدنا على إيجاد بداية الخيط

طأطأت رأسها ولم تعقّب. لأول مرة في حياتها تشعر بالخزي لذنب لم تقترفه، ذلك أنها أبداً لم تحب أن يكون لخالد بالذات أي تصور سيئ عنها.

- هيا أيها الكسول لقد ورطتني في إعداد الفطور لكن كيان تشفع لك، صباح الخير

قال خالد موجهاً نظره نحوها

- صباح النور وآسفة على إزعاجكما

- قلتُ لك أنها أصبحت حساسة وتصدق كل شيء. أنا لم أقصد إلا المزاح صدقيني لكن هذا لا يمنع أن أخاك كسول جداً. هيا فرائحة القهوة اخترقت أغشية المخ لدي ولا يمكنني الانتظار أكثر

بالكاد لمسوا أطباق الفطور، ثلاثتهم، ثم توجهوا للصالة وكل من الشباب يحمل فنجاناً كبيراً من القهوة، كيان تعرف أن لؤي يعشق القهوة وها هو خالد ينضم للقائمة. سألها خالد:

- كيان، هل فتحت ظرف الصور الخاص بك؟ أقصد هل نظرت إلى الصور مرة أخرى؟

- كلا لم أفعل والظرف أحضرته معي مغلق لم أفتحه

- يجب عليكِ أن تنظري إلى الصور مرة أخرى، نحتاج بعض المعلومات

- لا أريد بل لا أستطيع

- حسناً، سأحاول ذلك،

قالت وهي تغالب دموعها ثم فتحت الظرف وأخذت الصورة الأولى فصلت الرأس وأعادت الجزء الاخر إلى الظرف. لم تحتج الكثير من الوقت لتعرف مكان التقاطها فقالت:

- هذه الصورة التقطت في حفل زفاف أخت زميلة لي، حضرته معي سلمى

- هل تتذكرين ظروف التقاطها، أعني هل حدث شيء غريب، أي شيء؟

- لا أذكر شيئاً محدداً لكن يمكنني إعادة التفكير

- نعم كيان، ابذلي جهدك وحاولي الإسراع نريد أن ننهي هذه المسألة بأسرع وقت

* * *

كان خالد بالطبع مشغول الفكر على كيان بسبب تلك الظروف لذلك كان دائم السؤال عنها كلما تسنت له رؤية لؤي .

- كيف حال كيان الآن؟

- أبدا ليست بخير، تلازم غرفتها منذ ذلك اليوم ولم يثنها أحد عن ذلك، تذهب فقط إلى العمل حتى والدتي أصبحت حائرة في أمرها

- طبعاً يمكنني تفهم موقفها لكن لابد من وضع حد لذلك

- دعتنا زميلة لها لمشاهدة سباق لركوب الخيل في النـادي لكنهـا رفضت ذلك رغم حبها الشديد للحيوانات

- حقاً؟ لم أكن أعلم

- والدي رحمه الله هو من علمها حب الخيل وتدليله منـذ كانـت في الخامسة. عمي يمتلك مزرعة واسعة فيها اسطبل للخيول، كنا نـتردد عليها على الاقل مرة كل شهر لكن وبعد انتقالنا إلى هنا أصبح من العسير إيجاد المكان المناسب للتمرين.

- نستطيع زيارة النادي في يوم عطلته حيث لا يكون هناك سـوى الساسة والعاملين في المزرعـة. سيكون ذلـك مناسـباً لنـا جميعـاً، ألـيس كذلك؟

- أنت تعني يوم الثلاثاء، سيكون بعد العـصر مناسـباً. بالتأكيـد ستحب خالتي ووالدتي مرافقتنا

- حسناً إذن سأرتب أنا الحجز مع النادي وأنت تخبر الجميع.

* * *

- ولكن لؤي أنـا لـستُ في مـزاج يـسمح لـي بممارسـة أي نـشاط، أرجوك

- كيان، أنت بحاجة إلى تصفية ذهنك والتركيز علـى شـيء آخـر

حتى تتمكني من السيطرة على الامور مرة اخرى

– سأفكر بالأمر لكني لا أعدك بشيء

انصراف لؤي ترك فراغاً في الغرفة وأتاح لها الفرصة للهدوء مرة أخرى. في الواقع خالد ولؤي يحاولان جهدهما لإخراجها من هذه القوقعة التي احاطت نفسها بها وهي مدينة لهما بالشكر والعرفان. تمر عليها لحظات كثيرة تشعر بعدم الاهتمام، بل وبالثقة بأن هكذا اتهام لا يضيرها قليلا أو كثيراً لكنها تضعف في أوقات أخرى وتشعر بالغضب فترغب بالعزلة والسكون. أتاحت لها هذه المحنة فرصة التعرف على خالد أكثر، ما قدمه لها من الدعم والتفهم يبين مدى الوعي والعقلانية التي يتمتع بهما. كم مرة احتضننها بكلماته وأحاطها بنظرة عينيه، دوما كانت تشعر في وجوده أنها بخير وباتت تحسد خالتها وابنتها على قربهم منه بلا أي حرج.

لكنها الآن في مزاج شيطاني ولا رغبة لديها للذهاب إلى أي مكان. من جهاز هاتفها المحمول أرسلت رسالةً قصيرة إلى خالد تعلمه فيها بذلك وتشكره على اهتمامه. أقفلت بعدها الجهاز وأغرقت نفسها في ظلام الغرفة ولم تستيقظ إلا على صوت طرقات على باب غرفتها ووالدتها تناديها.

– كيان خالتك وسلمى وخالد قادمون لاصطحابنا لنادي الخيول في الثالثة أي بعد عشر دقائق من الان، هلا تجهزتِ؟

- من فضلك أمي أخبريهم بأني لا أود الذهاب اليوم، ربما في يوم آخر

- لكن لماذا؟ أنت تحبين الخيول، يمكننا القيام بجولة قصيرة

- ليس اليوم أمي، أرسلي لهم تحياتي

- كم أنتِ عنيدة! لا أريد أن أضع نفسي في موقف محرج لذلك عليك أن تخرجي وتخبريهم ذلك بنفسك.

كانت تشعر أن الأسوأ لم يأتِ بعد، وبدا أن هذا اليوم لا زال يحمل في جعبته الكثير. أبدلت ملابسها وخرجت حيث الجميع.

خالتها استقبلتها بحبور وبهجة كعادتها وكذلك سلمى بينما كان خالد متجهم الوجه لكنه رد تحيتها. «حقيقة تحرجني لباقته»

- سيصحبنا خالد إلى نادي الخيول، منذ زمن طويل لم نذهب إلى هناك،

كانت هذه خالتي بينما سلمى كانت تقفز هنا وهناك من البهجة

- كنت أود الذهاب لكني لا أستطيع اليوم وقد أخبرت خالد بذلك

- نعم، كتبت ما تودين قوله وأقفلت هاتفك دون حتى أن ترهقي نفسك بالتفكير في رأي الآخرين أو دوافعهم!

انطلقت هذا الملاحظة من شفتي خالد لتصفعها على كلا الخدين! وبالرغم من هدوئه الظاهر إلا أن ملامحه تنبئ بغضب كامن.

حاولت السيطرة على نفسها وأضافت بهدوء:

- لم أكن في حالة تسمح لي بالحديث مع أحد
- لماذا توقعت هذه الإجابة يا ترى؟

قال باستخفاف

- وما شأنك أنت بي؟ أنا لا أود الذهاب لأي مكان، دعوني وشأني!

قالت ذلك واستدارت عائدة من حيث أتت وهي تشعر أن وجهه سيشتعل من شدة الغضب رغم كل محاولاته للسيطرة على نفسه. لاحظت عند خروجها أن الغرفة لم يكن فيها سواهما. بعد ذلك بقليل سمعت صوت محرك السيارة الذي ما لبث أن غاب في الافق.

قضت كيان الوقت التالي كله في غرفتها تحاسب نفسها وتعاتبها على ما بدر منها خصوصاً وهي على يقين أن خالد لا يستحق منها ذلك مطلقاً. عقدت العزم على الاعتذار منه قريباً لكن الأمور سارت على عكس تلك النوايا، حيث أنها لم تره لفترة ليست بالقصيرة ولم تعلم أين اختفى وبالطبع لم تكن لتسأل.

* * *

شعر خالد بالغضب من هجوم كيان غير المبرر عليه وهي تعلم أنه يحاول جهده مساعدتها والاهتمام بها في الظروف الراهنة لأن المسألة

ليست بتلك البساطة ومن الواجب معرفة مـروج تلـك الـشائعات لتلقينـه درساً لن ينساه وإغلاق تلك الصفحة مرة وإلى الأبد. ويبدو أن مدللة أبيـها لا تنظر للأمر بتلك البصيرة وتجعل الامور أكثر تعقيداً ولأنه يقدر عمـق الازمة فقد أراد لها الخروج إلى النادي لإيجـاد الفرصـة والمكـان المناسـب لبعض الاسئلة بعيداً عن سمع خالته لكن ذكـاء ابنتهـا المفـرط حـال دون ذلك وها هم يخسرون المزيد من الوقت.

عقد العزم على العمل علـى الموضـوع بمفـرده لأن المـسألة حـساسة ولا يمكن إطالة أمدها أكثر وقـرر كـذلك تجاهـل كيـان وحتـى لـؤي لتجنـب المزيـد مـن الـصداع. ولابـد أن القـدر يـساند موقفـه فقـد أسـفرت نتـائج مباحثاته مع أحد العملاء عن وجوب السفر إلى الحدود الـشمالية لإجـراء مناقشات مع شريكهم المرشح هناك فاغتنم الفرصـة لقـضاء عطلـة قـصيرة والتعرف على المنطقة التي لم يقم من قبل بزيارتها وفي اليوم التـالي كـان يستقل سيارته إلى هناك.

بعد انتهائه من عملـه توجـه ذات مـساء للـسير وسـط المدينـة حيـث تكثر المقاهي والحوانيت الصغيرة التي تبيع منتجـات محليـة مـن طعـام وملابـس وأدوات للزينـــة والجـــدران. اشـــترى لوالدتـــه بعـــض الفواكـــه المجففة التي تحبها كثيراً وبعض الروائح العطرية من الزهور المحلية. في أحد الحوانيت وقع نظره على خاتم رائع الجمال تـصميمه عبـارة عـن يد تمسك شمساً بين إبهامها والسبابة وقد تم اختيار الكريستالة بحرص

شديد يظهر فيها اندماج اللون الأحمر والاصفر كأنه نار مشتعلة. اشتراه وهو يخمن أنه يناسبها تماماً لكن من يدري ان كانت ستقتنيه يوماً.

واصل سيره في تلك الأزقة يتوقف أمام واجهات المحال التجارية، تلفت نظره هذه الأشياء وتلك، كان مشغول الفكر لكن الجو والمحيط الهادئ للمدينة أشعره بالجمال والسعادة. افتقد هذه الاماكن في جو المدن المكتظ، هنا بعدٌ آخر، جمال هادئ، رائحة مختلفة، حتى الناس تستشعر في نظرات الكثير منهم الطيبة التي لم تلوثها عوامل الزمن. دخل زقاقاً فرعياً بدا في ضيقه واصطفاف حوانيته كأنه جزء من فيلم قديم. تنخفض فيه أبواب المحال عن الشارع بعتبة أو اثنتين ورائحة التوابل الشرقية والقهوة تفوح من كل مكان لتهدهد نفسه المشتاقة لرائحة الجنة. استدعت فضوله لافتة على أحد الابواب كُتب عليها «أنت عندنا في أمان» فاختار ذلك المقهى لقضاء الامسية وتناول وجبة خفيفة.

كان المكان عجيباً تتوسطه نافورة مياه صغيرة تتسرب منها مياها ساخنة تفوح منها رائحة خشب الصندل-على حد تخمينه- وفي بحيرة الماء الصغيرة تطفو الكثير من الاعشاب والعيدان الجافة والتي تشكل خليطاً من العطور الشرقية. المقاعد مزينة بمفارش مزركشة بألوان رائعة يزيد من جمالها أنوار خافتة موزعة بعناية حول المكان. تبرز في الجدار الداخلي مدفأة حجرية تتراقص فيها ألسنة اللهب مع سيمفونية رائعة

تنطلق من نقط مختلفة فوق الجدران.

كان المكان مزدحماً بالرواد، جال خالد ببصره يبحث عن مكان مناسب مقرناً ذلك بالسير إلى طاولة بالقرب من المدفأة.

ما إن أخذ مكانه حتى اقتربت منه نادلة صغيرة الحجم -والعمر على ما يبدو- طلب قهوة وبعض الشطائر وأخذ يراقب المكان. إنه جميلٌ وهادئ بالفعل، الكثير من الطاولات يجلس عليها شخص بمفرده، يحتسي القهوة، يقرأ كتاباً، يطالع الصحف، أو يستخدم جهازه المحمول في محادثات كتابية. بعض الطاولات يجلس عليها اثنان لا تسمع لحديثهم صوتاً وكأنهم اتفقوا على استخدام لغة العيون.

بعد أن جاءت النادلة بطلبه أخذ يستمتع بوجبته والقهوة. لفت نظره فتاة تبدو في منتصف العشرينات دخلت لتوها واختارت لجلوسها طاولة خلفية بينما تتلفت طوال الوقت يمينة ويسرى تبحث عن أحد ويبدو عليها القلق أو الذعر إن أردنا الدقة. فيما بعد حضر من كانت تنتظره أو تخشى ظهوره وعلى وجهه إمارات الغضب وبوادر العنف. نظر خالد إلى الفتاة فوجدها تبكي وتجول بناظريها طلباً للنجدة فما كان منه إلا أن لبّى.

كان أخوها يتحدث عن أشياء كثيرة فهم منها شرف وزواج فوجد خالد نفسه يغادر المقهى وبجواره فتاة لا يعرف عنها شيئاً إلا أن

رجولته أوقعته في ورطة. يبدو أنه اعتقد أنها هنا برفقته وعماه الغضب عن فهم حقيقة الأمر، وما يهم الآن هو من هي وما قصتها وكيف سينتهي من هذه المسألة. بعد أن هدأت الفتاة بادرها بالسؤال:

– هل أنت بخير الآن؟

– نعم، شكراً لك

– هل ترغبين ببعض الشراب أو ربما الطعام

– كلا، شكراً لك

– ربما يساعدك القليل من عصير الليمون على الهدوء، يجب أن نتحدث. دعينا ندخل إلى ذلك المقهى

– كما تريد

اختار خالد مكاناً هادئاً ودعاها للجلوس بينما يشير إلى النادل الذي لبّى مسرعاً. طلب منه كأساً من عصير الليمون وفنجاناً من القهوة بدل تلك التي لم تتح له الظروف المفاجئة إتمام شربها. توجه مجدداً لمخاطبة الغريبة:

– حسناً، حاولي أن تهدأي من فضلك، قد يلفت منظرك نظر نزلاء المكان

من بين شهقاتها المخنوقة هزت رأسها بالإيجاب. بعد برهة كان النادل يتجه صوبهم وبعد أن أنهى عمله قال خالد:

- سيفيدكِ القليل من العصير

- شكراً...

- أعتقد أنه يمكنني الآن سؤالك عن طبيعة المشكلة، طبعاً لا أحتاج من التفاصيل إلا ما يساعدني على تقدير الموقف وكيفية التعامل معه

مبهوتة نظرت إليه ثم سألت:

- شرقيٌ أنت؟

- أليست بشرتي القمحية وشعري الداكن ولغتي السليمة أدلة كافية على ذلك؟ ومع ذلك فالإجابة هي نعم،

قال بهدوء:

- نعم، لكني توقعتُ أنك تقطرُ فضولاً لمعرفة التفاصيل الدقيقة كعادة الكثيرين هنا

- ها أنت تقولين الكثيرين، أنا من القلة إذن

- يمكنك أن تقول القلة القليلة وتتبعها ب «جداً» إن أردت

- هل هذه نظرة سوداوية؟

- بل هو الواقع .. إن أردت أن تكون واقعياً!

- قد نتحدث في هذا لاحقاً، لكن المهم الآن كيف يمكنني المساعدة والأدق هل يمكنني المساعدة؟ اسمي خالد وأنت؟

– أهلا بك .. اسمي مها .. من رأيته سابقاً هو أخي. يعتبرني منذ أن انفصلتُ عن زوجي عبئاً عليه وهامشاً في كتاب الحياة التي تستمر بدورها ولا تقف لأحد

– إنه مخطئ، لكن وكما تعلمين ليس وحده بالتأكيد. منظومة المجتمع تفرض سطوتها على الآراء المخالفة

– وأنا خير من تعرف ذلك. أريد السفر بعيداً لأمنح نفسي فرصة للهدوء والسلام دون الخضوع لأعراف بالية. طبعاً يرفض أخي ذلك –بعد وفاة والدي أصبح هو المسئول– حاولت معه مرة وأخرى دون جدوى. بدأت في تحضير اجراءات السفر حين تم قبولي في برنامج تأهيل للسيدات العازبات تقدمه مؤسسة دولية. في صباح اليوم وعندما رأيت إصراره على الرفض وأنني قد أخسر الفرصة أخبرته بأنني تعرفت على شاب من بلدة مجاورة عن طريق الانترنت، سنتزوج ونسافر معاً. مع الاسف اضطرني تعسفه إلى اللجوء للكذب. ثارت ثائرته وحاول الاعتداء بالضرب عليّ لكني عاجلته وتركت المنزل إلى المقهى حيث تقابلنا قسراً واعتقد أن أخي ما تراجع عن ضربي هذه المرة أمام كل تلك الجموع إلا لخوفه من ردة فعلك.

كان منصتاً للحديث وهو يفكر في كم الفتيات والفتيان الذين تضيع طاقاتهم ويضيع مستقبلهم بسبب العنف الأسري وعدم تفهم الأهل لرغبات أبنائهم والتعامل معهم بطريقة صحيحة قادرة على تحقيق

مصالح جميع الاطراف. ها هي حبيبة أخرى بتفاصيل مختلفة والنتيجة واحدة، ومرة أخرى تلعب منظومة المجتمع المهترئة الدور الأكبر في هذا الفشل. ابتسم لقولها «تقابلنا قسراً» وسألها بعملية واضحة:

- لا بأس من ذلك. وماذا تنوين الآن، لا زالت فرصتك بالسفر قائمة، أليس كذلك؟

- نعم لكن فترة إقامتي تبدأ بعد ستة أسابيع من اليوم ولابد أن أجد مكاناً مؤقتاً لإقامتي

بدا وكأنه يفكر في أمر ما ثم قال بروية:

- عائلتي تملك شقتين غير مسكونتين، احداهما صغيرة تناسب إقامة شخص واحد. يمكنك البقاء هناك الوقت الذي تُحبين

- لك كل الشكر لكني لا أريد أن أتسبب لك بالمزيد من المتاعب

- أنت ستقيمين فترة مؤقتة بمفردك، باعتقادي ليس في ذلك أي مشقة أو حرج

- إن كنت تعني ذلك فأنا لن أفرط في اقتراحك. شكراً جزيلاً لك

- جيد إذن. كان من المقرر أن أبقى هنا فترة من الوقت لكن مع هذه الحيثيات سنغادر الليلة إن كان باستطاعتك تدبر أمورك في الساعات المتبقية من النهار

- نعم بالتأكيد فأنا لن أعود لشقة أخي مرة أخرى. سأغادر كما

أنا مع هذه الحقيبة الصغيرة ففيها كل ما يهمني

- حسناً، نلتقي أمام محطة القطار في السابعة والنصف. سأقلك من هناك بسيارتي

- نعم، شكراً لك

في طريقه إلى الفندق، حاول خالد تصفية ذهنه ومراجعة الأمور المستجدة وبعقلية خالد المغترب وجد أنه لا بأس في الأمر، في النهاية هي ستقيم بمفردها وتغادر بعد فترة قصيرة ولكنه عندما عاد وجد مواجهات أخرى تنتظره!

وصلا البيت بعد منتصف الليل فاضطر إلى استقبال الضيفة هذه الليلة في شقتهم.

- يمكنك استخدام هذه الغرفة الليلة وسأتحدث إلى والدتي عن بقائك في الشقة العلوية في الصّباح. تفضلي هذه

وقدم لها زجاجة ماء

- شكراً لك

- تصبحين على خير

* * *

- ماذا الذي تقوله خالد؟ ومن هي الضيفة التي تتحدث عنها؟

- اخفضي صوتك أمي رجاءً

- يا بني ما تقوله لا يتناسب مع أعرافنا، تحضر معك فتاة عرفتها ليوم واحد وتطلب مني استقبالها في بيتي؟!أم أن الموضوع أكبر من ذلك بكثير؟!

- أمي أنا رجل ناضج يستطيع تسيير حياته وفق مبادئ أنا من خلقها وأتبناها، غير ذلك لا يهمني مطلقاً. الفتاة ستبقى هنا لفترة قصيرة فقط لذلك أرجو أن تحتملي وجودها ولا تسألي عن أي تفاصيل لن تفيد أحداً. أنا مضطر للذهاب إلى عملي فهلا قمتِ باصطحابها إلى الشقة العلوية عندما تستيقظ من فضلك؟

- كوالدك تمامًا لا تحب الجدال أو التوضيح، هذا ليس عادلاً أبداً

قبّل جبهتها بكل ود قائلاً:

- هو وأنا نحب فيكِ صبرك وثقتكِ، وصدقيني يوماً ما قد أخبرك بعض التفاصيل

- قد؟!.. اذهب إلى عملك واترك لي أمر الفتاة، وبالمناسبة خالتك سألت عنك كثيراً وستحضر لزيارتنا في المساء

- لقد اشتقت لها فعلاً، جيد أنها ستأتي لأناغشها

انصرف إلى عمله وهو يفكر إن كانت خالته هي من قصده بكلماته أم

شخصاً آخر غير بعيد عنها. منذ سوء الفهم الذي حدث وهو يصرّ على الابتعاد لكن المسألة مرهقة إلى حد كبير، هو يعترف!

انصرف خالد تاركاً والدته مع تساؤلاتها وحيرتها، خفف عنها فقط ثقتها به وبرجاحة عقله. واجبها دفعها إلى طرق باب الضيفة التي بدا عليها التوتر حالما رأت المرأة الوقورة لكنها قالت:

- صباح الخير سيدتي، اعذري تطفلي على بيتك دون إذنك وأعدكِ ألا يطول الأمر كثيراً

- صباح الخير، أنا أثق أن خالد لديه أسبابه لكني فعلاً أتمنى حلّ هذه المسألة في أسرع وقت .. كما تعلمين، هناك أصولٌ لا نستطيع تجاهلها

- بالتأكيد وأنا سأهتم بذلك فعلاً

- حسناً، لقد أعددت القهوة سنتناولها معاً، بعدها سأصحبك لرؤية الشقة العلوية التي ستمكثين بها

- شكراً لك، سأبدل ملابسي بسرعة

* * *

عندما عاد من عمله عصرًا سأل خالد والدته عن مها فأخبرته أنها لم تغادر الشقة العلوية فقال أنه سيستدعيها لنقاش بعض الامور.

- خالتك ستكون هنا قبيل المغرب ولا أريد أن أتعرض لأسئلة لا

أملك لها جوابًا

- لا تقلقي، لن نطيل
- أنت تحملني فوق طاقتي خالد، انتبه!
- لا عدمت رضاكِ حبيبتي
- ومن قال أنني راضية؟!

قالت رافعة حاجبيها بتعجب

- إذن فأنت غاضبة؟!أيرضيكِ ألا أوفق في حياتي بسبب سخطكِ عليّ؟!

قال بنبرة طفولية

- ولا ساخطة!أنا فقط غير متقبلة للوضع الحالي ولا يمكنني الصبر طويلاً
- ها قد عدنا .. لا تملين يا منيرة!
- ولد!
- لا أستطيع التوقف عن الضحك، كم أنت لذيذة عندما تغضبين!وأنا لست ولداً!سأعود حالاً وأرجو أن تتفضلي علينا بفنجاني قهوة
- أنا لا أقصر مع ضيوفي، هيا اذهب لننتهي من الأمر قبل وصول خالتك

* * *

ارتفع رنين الجرس داخل الشقة وأصبح ما خشيته والدته حقيقة. اندفعت خالته ميرفت تسلم على أختها وتبرر لها قدومها باكراً بأن صديقة كيان كانت في زيارتهم وعرضت عليها إيصالها في طريق عودتها. كانت والدته متوترة زائغة البصر عندما دلفتا إلى الصالة حيث يجلس مع مها استقام خالد وحثّ الخطى ليرحب بخالته ويسلم عليها فارتسمت على وجهها سعادة غامرة لرؤيته.

- خالد يا ولدي الذي لم أنجبه، كيف حالك؟ اشتقت لك، كأنك غبت دهرًا !

«ليتها أورثت ابنتها هذا اللسان العذب»

- سلمك الله خالتي. ها أنا كما ترين بخير وبلا شك اشتقت لك

دعتها والدته للجلوس فوقع بصرها على الضيفة، تراجعت إلى الخلف وعيناها تتساءل دون أن تتحرك شفتاها. نظرت والدته بدورها إليه ولسان حالها يقول: «هذا ما جنته يداك! كيف سنخرج الان من هذه الورطة؟»

- تفضلي خالتي، هذه مها، تعرفت عليها من خلال عملي وقد استأجرت الشقة العلوية لمدة شهر أو أكثر قليلاً

- أهلا بك يا ابنتي

قالت باقتضاب وتوجهت إلى أختها بالقول:

- إذن نجلس نحن في الشرفة يا منيرة

- سأعد الشاي ولديّ بعض الكعك صنعته هذا الصباح، تعالي سنأخذه معنا

لحظتها وبتفكير سريع في الأمر برمته عرف خالد أن المتاعب لابد قادمة. أكمل الحديث سريعًا مع مها وسألها إن كان عليهم حجز تذكرة سفر لها لكنها آثرت التأني لترى ما تسفر عنه الأيام القادمة. لم يشأ التدخل في أمورها فمنحها ذلك الوقت مؤكدا على ضرورة استعجال الأمر. غادرت هي وتوجه هو إلى الشرفة بعد أن سحب كمًا لا بأس به من الهواء استعداد للعاصفة التي ستثيرها أمه مجدداً في وجهه خصوصاً وهي مدعومة الآن بوجود أختها.

- خالد يا ولدي كيف تحضر فتاة غريبة إلى بيتك دون حتى أن تكلف نفسك بتقديم أي تفسير؟

- خالتي، الأمر لن يطول

- أنت تنظر للأمر من زاويتك لكن عليك أن...

استمر النقاش واستمر الجدل ومن كان يعنينه في الأمر هو شخص آخر بعيدة هي المسافات بينها وبينه ولا تحتاج المزيد من التعقيد، لكن هذا ما كان، وعليه التعامل مع النتائج مهما كانت، وكله أمل. هذا المجتمع يصر على تقزيم العلاقات وحصرها دومًا في رجل وامرأة وعيب

لا يجوز! كأنه اصطحبها إلى غرفة نومه وليس إلى شقة مستقلة وغير مسكونة! وحقيقة الأمر أنها امرأة مضطهدة وهو -بشهامة رجل- حاول تقديم المساعدة من منطلق إنسانيّ بحت، أم كان عليه تركها لمصيرٍ أعمى من أجل مجتمع يعشق التكرار ويخشى التجديد؟!

قديمًا كان الرجل يئد مولدته والتهمة فتاة! واليوم يتآمر المجتمع كله على وأدها والتهمة لم تختلف! وهو أبدًا لن يقبل أن يكون جزءًا من هذه المنظومة، لن يكون نسخةً مكررة خلق نموذجَها عقلٌ أحمق!

* * *

حال عودتها من منزل أختها، بدا عليها الانشغال والحيرة لذلك سألت كيان والدتها عن السبب فأخبرتها بأمر فتاة أحضرها خالد لتقيم في بيتهم دون التطرق إلى تفاصيل علاقته بها أو توضيح الأمر لأحد، لم يكن قوله إلا «ستبقى لفترة قصيرة» وهذا لم يرق لكلتيهما، أمها وخالتها. وماذا عنها هي؟ هذا سؤال سخيف ولماذا سيعنيها الأمر وهي «لا ناقة لها فيه ولا جمل» ؟!

اتفقت كيان مع الزمن على هدنة، وقررت الذهاب إلى المكتبة بعد العصر تستعير بعض الكتب وتعيد ما في حوزتها. بعضها لم تتم قراءته لكن فترة استعارتها شارفت على الانتهاء ولابد من إرجاعها أو تمديد فترة استعارتها. ولأنها منّت نفسها بهدنة فقد بالغت في أناقتها ومظهرها حتى خيل إليها أنها نسيت مشكلتها تماماً. التقطت مفاتيح

سيارتها وأخبرت والدتها بأنها ستتوجه إلى المكتبة لبعض الوقت. عند المدخل كانت تفتش في حقيبة يدها عن بطاقة المكتبة بينما تهم بالدخول ولم تنتبه للشخص الذي يسرع الخطى للخارج ولم تُفِق من دهشتها وقد أسكرتها رائحة عطره إلا وهي بين يديه.

«يا له من موقف محرج!»

رفعت رأسها لتقدم اعتذارها لذلك الشخص فقابلتها ابتسامة كسولة دفعتها لتطرق برأسها مرة أخرى وصححت لنفسها

«يا له من موقف سخيف!»

- هل أنت معتادة على منح الأحضان لرجالٍ غرباء؟!

سمعت نبرة السخرية في صوته فلملمت شتات نفسها وتأهبت للرد

- كان يفترض بك أن تراني وتتحاشى الاصطدام، فقد كان واضحاً أنني منهمكة في البحث عن شيء ما

«أتحاشى الاصطدام، مجنونة أنتِ!»

والحقيقة أنه فعلاً لم يرها فقد كان على عجلة من أمره، لكنه يشكر الزمن الذي أتاح له هكذا مصادفة قد لا تتكرر في العمر مرتين.

رؤيته لاحمرار وجهها وعينيها أنبأه بأنه قد اختار الجملة الخاطئة لمشاكستها ومع ذلك قال بكل هدوء ليؤكد لها أنه لم يقصد ذلك الذي جال في خاطرها:

- آه نعم إنها غلطتي، لماذا لم أتوقع منكِ ردًا آخر؟!عمومًا أنا آسف لعدم انتباهي، أعدكِ أنني سأكون أكثر حذراً إذا ما جمعنا طريق واحد مرة أخرى!

وتحرك باتجاه الباب دون أن يعطيها فرصة للرد فهو لا يريد تعكير صفو هذه اللحظة. أعاد المشهد في رأسه مراراً وضحك مراراً .. «جميلة هي جداً من ذلك القرب».

* * *

«لا أفهم لماذا تصر الظروف على وضعي في موقف محرجٍ تلو الآخر معه؟!»

أرادت الاعتذار لأنها تعرف أن هذه المرة أيضاً غلطتها لأنها لم تنتبه لكنه لم يمنحها الوقت الكافي وما أن استعادت تركيزها كانت خطواته الواسعة قد أوصلته إلى خارج مبنى المكتبة. كانت قد تحايلت على نفسها لعقد تلك الهدنة المزعومة لكنها الآن ذهبت أدراج الرياح. من حافظة نقودها «التائهة» أخرجت بطاقة المكتبة لتعيد ما في حوزتها من كتب وتتوجه مباشرة إلى البيت دون حتى أن تفكر في استعارة كتب جديدة كما كان مخططاً، لكنها في طريق عودتها قررت أن تعرِّج على بيت خالتها لزيارتها والاعتذار من خالد إن أتاحت لها الظروف رؤيته. اتصلت بوالدتها وأخبرتها بذلك فأوصتها كعادتها أن تأخذ معها هدية لخالتها.

كان الباب الخارجي مفتوحاً فدخلت مباشرة بناء على توصيات خالتها المتكررة لها بعدم الانتظار في الشارع.

منزل خالتها كمنزلهم قديم الطراز له شرفة واسعة ذات نوافذ كبيرة على شكل أقواس غير مغطاة تطل على حقل واسع من أشجار مثمرة يكون لها في الصيف ألواناً بديعة. أشجار النخيل والزيتون تحيط بالمنزل من جميع الجهات وفي إحدى زوايا الحديقة تحت ظلال أغصان الكَرْمَ تتوزع كراسٍ اسمنتية يتوسطها طاولة منخفضة لقضاء أمسيات الصيف. كانت كيان ووالدتها تقضيان أوقاتاً جميلة في هذه البقعة مع خالتها وسلمى وبنات أخوالها. هي والفتيات كنّ أحياناً يسمرن إلى ما بعد منتصف الليل لكن هذه العادة قد توقفت منذ عودة خالد. عندما دقت الباب الداخلي للمنزل كانت خالتها هي من فتح الباب.

– كيان، ما هذه المفاجأة الرائعة! مرحباً بك يا ابنتي تفضلي، تفضلي

– شكراً لك خالتي، لقد اشتقت لك كيف حالكِ؟

– بخير من الله ورضا. وأنتِ كيف حالكِ وعملكِ؟

– كل شيء بخير شكراً لكِ

– ستغضب سلمى إن علمت بزيارتك هذه. لديها موعد عند طبيب الأسنان

تبادلت هي وخالتها أطراف الحديث وأخبرتها الأخيرة عن غضبها لما فعله خالد من إحضار تلك الفتاة، فما كان من كيان إلا أن قالت: «ثقي به خالتي، خالد يُعتمد عليه» فهدأت نفس خالتها واستقرت. هي لا تدري إن كانت قالت لها هذه الكلمات لتهدئها أم لتهدئ نفسها. أصرت خالتها على أن تتناول معهم طعام العشاء. قامت بتنسيق الزهور التي أحضرتها في إناء ووضعتها في منتصف المائدة وما ان انتهتا من العمل حتى فُتح باب الشقة وسمعت خالد يقول بصوتٍ مرتفع:

- أزهار التوليب ومائدة رائعة! لمن هذا العشاء الشاعري يا منيرة؟

كان قد انتهى من سؤاله لدى وصوله إلى باب المطبخ حيث كانتا، وبدا أنه تفاجأ بوجودها.

- هذه الجميلة كيان كعادتها تجعل كلّ شيء جميلاً

توقعت أنه غاضب منها ولن يعلق أو يلقي التحية لكنه كالعادة يخالف توقعاتها.

- ابنة خالتي العزيزة في زيارتنا، يا مرحباً! كيف حالكِ كيان؟

«جيد إذن هو لا يتجاهل نداء الواجب حتى لو كان غاضبًا، نقطة لصالحك يا ابن خالتي»

- بخير وأرجو أن تكون كذلك

فقط رفع حاجبًا دون أن يجيب ثم استدار قائلاً:

- ماما، سأغير ملابسي لن أتأخر. أين أبي؟

- توجه إلى المقهى، قال بأن معدته تؤلمه ولا رغبة له بتناول الطعام

- معدته تؤلمه؟ لماذا؟

قالت كيان متسائلة

- لديه حساسية عالية منذ كان شاباً، لا شيء خطير. لنذهب إلى المائدة، خالد لا يتأخر

وهو لم يتأخر فعلاً، غير ملابسه الرسمية بأخرى عادية جداً وتناسبه جداً وهذا ليس عدلاً !

- رائعة هذه الزهور!

لم يوجه لها الكلام لكنها تعمدت التوضيح فقالت :

- خالتي تستحقها وأكثر

- بارك الله فيك يا ابنتي. خالد كيف كان يومك؟

- جميل .. في الواقع جميل جدًا،

قال وهو يركز النظر في طبقه وعلى شفتيه ابتسامة باهتة

«جميل؟!»

دق جرس الباب فتولى خالد مهمة فتحه. رأت كيان من مجلسها فتاة، عرض عليها خالد تناول طعام العشاء فرفضت لكنه أصر عليها فصحبته إلى الطاولة. عرفهما على بعض باقتضاب وجلس الاثنان مقابلها هي وخالتها. لم تتحدث الفتاة بالكثير وأغلب حديثها كان موجهًا إليه، تستشعر على ما يبدو أنها غير مرحبٍ بها إلا منه. بالنسبة لها كان الأمر -إلى حد ما- سيان فلم يبدُ عليهما ما يثير الريبة وخالد بطبيعة الحال تقود شخصيته طباع صقلتها الغربة وأثرت بها ثقافة مختلفة إلا أنه لم يكن يتبسط في حديثه، كان طبيعيًا. تقريباً لم يتوجه إلى كيان بالحديث، كان ذلك مع والدته والغريبة.

وهو كان يتمنى ألا يتحدث إلى أحد سواها لكنه أراد استيضاح ردة فعلها فلم يتعجل الأمور. حضور مها في وجود كيان فرصة ممتازة ليرى إن كانت ستتصرف كما كان من أمه وخالته لكنها بهدوئها لم تمنحنه الفرصة لإصدار أي حكم غير انه اعتقد أن ذلك مؤشرٌ جيد. على غير عادتها كانت مها نشطة ومنفتحة، تحدثت إلى الجميع وتفاجأ بها خالد تضع يدها على كتفه وتقول بامتنان:

- أنا مدينة لخالد بالكثير وأتمنى يومًا أن أرد الجميل

مع الإيحاءات الظاهرة على وجهها لم يحب خالد تلك الحركة منها

ولا والدتـه. كيـان لم تبـدِ أيـة ردةِ فعـل، لكنهـا بعـد قليـل اسـتأذنت بالانصراف.

- اجلسي يا ابنتي، لم العجلة سلمى لن تتأخر أكثر

- أنا هنا منذ العصر خالتي ولدي عمل في الـصباح البـاكر، يجـب أن أذهب

- خالد، هل يمكنك إيصال كيان للبيت؟

- ما من داعٍ لذلك أتيت بسيارتي،

قالت كيان بسرعة قبل أن يجيب

- حسنًا سأوصلك إلى سيارتك إذن

«صدقني لا أتمنى ذلك، ليس الآن على الأقل»

- أنا أحفظ الطريق عن ظهر قلب خالتي

قالت ذلك متجهة إلى الباب لكنه تبعها قائلاً لوالدته وربما للأخـرى كما ظنت كيان «لن أتأخر.»

لم يتفوه كلاهما بكلمـة وعنـدما وصـلت سـيارتها قالـت لـه كيـان باختصار شديد:

- أنا آسفة خالد

- على الحضن؟! صدقيني ولا رجل كان ليستاء من ذلك!

قال مشاكسًا وبكل وقاحة!

–   بل لأنني لستُ معتادة على إهانة أحد خصوصاً إذا كنت على يقين أنه يقصد تقديم المساعدة

قالت ضاغطة على كل حرف كأنها ملّت من تكرار هذه الجملة، وعندما طال صمته أضافت:

–   عليك العودة فخالتي لن تستسيغ البقاء مع مها طويلاً

بدت عليه آثار المفاجأة وسألها:

–   هل أخبرَتكِ شيئًا؟

–   أليست هذه ردة فعل طفل يخشى العقاب لجرمٍ اقترفه؟!

كان هذا دورها لتتثأر من مشاكساته

–   في الواقع .. أنا تهمني أشياءٌ أخرى!

رد بهدوء جمّ بينما ينظر بغموض إلى البعيد

–   المهم ألا تُثقل على خالتي .. والآن يجب أن أذهب، تصبح على خير

استدارت لفتح باب السيارة فناداها «أرجوك دعني أذهب بسلام» هذا ما تمنت قوله لكنها أجابت ب «نعم» فقال:

–   شكرًا لكِ على هذه الزيارة اللطيفة و .. لا تقلقي سيكون كلُّ شيء بخير

–   إن شاء الله

تبعتها بالتحية وانطلقت

* * *

مرت بعض الأيام دون أي تغيير إلا أن خالد عاد من عمله ذات يوم فالتقى مها على درج المنزل متوجهة إلى شقتها فسلم وسألها إن كان هناك أي مستجدات فكان مما ذكرته أنها قابلت كيان مصادفة في البلدة وقد كانت الأخيرة بصحبة شاب يدعى أسامة حسب ما ذكرت. خالد لا يدري إن كانت قالت ذلك بشكل عفوي أو مقصود خصوصاً مع تغير تصرفاتها الفترة الأخيرة ولأنها كانت ضيفته، فلم يكن ليسيء إليها بناء على فرضيات، لكنه وبمجرد سماعه للاسم ثارت ثائرته فغادر سريعاً حتى لا تلحظ منه ذلك. حاول العد للعشرة حتى يهدأ، لكن دون جدوى، ولو قام بالعد للألف فلن يغير ذلك شيئاً، أخرجت شياطين غضبه وانتهى الأمر!

توجه إلى بيت خالته ولسوء حظها كانت كيان هي من فتحت له الباب وتراجعت إلى الخلف خطوة ناطقة باسمه تبعته بترحيب هامس لولا أنه رأى حركة شفتيها لما شعر به.

- أين كنتِ كيان؟

- ماذا؟!

- لقد سمعتني كيان، أجيبيني!

- ماذا تقصد بذلك؟ ولماذا تصرخ؟

قالت مستفهمة لكنها لازالت محتفظة بهدوئها ونبرة صوتها المنخفضة

- جيد إذن سوف أسألك بطريقة مختلفة، ماذا يريد منكِ أسامة؟ وكيف تذهبين لمقابلته؟

بدا عليها الاضطراب واضحاً ونقلت عينيها هنا وهناك قبل أن تجيب

- طلب مقابلتي، قال أن لديه كلاماً مهماً فقبلت

- قبلتِ؟! هكذا بكل بساطة؟! أتمنى لو أفهم كيف تفكرين!

- خالد ماذا بك؟!

- ماذا بي؟! لا شيء أبداً. فقط هناك من سعى لتشويه صورتك ولفق لك تلك الصور الفاضحة والله وحده يعلم ما هي دوافعه وأنت بكل، ماذا أقول؟ سذاجة؟ غباء؟ تمنحينه فرصة على طبق من ذهب لحبْك رواياته وربما يكون هو من يقف وراء تلك المصيبة

كان يشتعل غضبا، يملأ عينيه بغض ورغبة في تحطيم أي شيء وكل شيء، عاد خالد الشرقي!

أما هي فأُسقِط في يدها ولم تستطع النطق، وجاهدة حاولت التماسك. شعرت بحرارة عينيها لكنها منعت نفسها من البكاء واستدارت.

- ستخبريني بما أراده منك ذلك ال...

والشكر لله أنه لم يتلفظ بشيء فقالت محاولة إخراج صوت طبيعي:

– هل يمكننا تأجيل الأمر بعض الوقت خالد؟ أرجوك!

– سأمنحك الفرصة للغد كيان ولا تختبري صبري، لو سمحتِ

تمتم بالوداع ورحل تاركا إياها لآلامها، «أين أنت يا أبي»، تمنت أن يأخذها في حضنه ويقول: «لا تقلقي، سيكون كل شيء بخير، سأحميك يا جوهرتي الثمينة وسأمزقه ذلك الذي تسوّل له نفسه أن يتسبب في انهمار دموع عينيك». هي تتمنى أن يعيد لها الثقة من جديد، الثقة التي تتأرج على مشنقة المشكلات. أسامة أخبرها صباحاً أنه يريد أن يتحدث إليها في موضوع مهم لكن خارج أسوار المؤسسة وعرض عليها تناول فنجان قهوة في مقهى وسط المدينة لا يبعد كثيراً عن مقر عملهم، فوافقت بعد إصراره لأنها خشيت أن تكون قد تسربت إليه بعض المعلومات أو حتى تلك الصور البائسة. فوجئت بمقدمة سخيفة مفادها أنهما زميلا عمل وأنه يعرفها لفترة غير قصيرة لكن الظروف ربما لم تُتِح لهما التعامل مع بعضهما بالشكل الذي أراده، لكنه سيكون سعيداً إذا منحته فرصة للبدء من جديد بطريقة صحيحة، وعندما سألته ما معنى ذلك قال بأنه يريد أن يتقدم لخطبتها، لكنه يود مبدئياً معرفة رأيها. كان ذلك حقيقة مفاجأة لم تتوقعها وهي حتى غير مستعدة للتفكير في المسألة بشكل جديّ لكنها أخبرته من باب الذوق مع زميل أنها ستفكر بالموضوع وتبلغه ردها قريباً.

كان بإمكانها أن تخبر خالد بذلك لتثبت له سوء ظنه لكنها مع

ثورته تلك لم تجد الوقت مناسباً لأي حديث وما لم تحسب له حساباً هو أن تكون والدتها قد سمعت طرفا من الحديث الذي دار بينهما ولسوء الحظ أنها استمعت إلى الجزء الأسوأ! ذهبت إلى كيان في غرفتها كي تستوضح الأمر فلم تجد الأخيرة بداً من إخبارها عن الأمر برمته وكانت هذه غلطة أخرى لها لا تُغتفر، لم تحتمل والدتها الصدمة فاستسلمت لألم غزاها على غير موعد! كانت بالكاد تتنفس وتتصبب عرقاً. هي تعاني من ارتفاع ضغط الدم «ويبدو أنني سأكون السبب في قتلها .. لا يا رب أرجوك! إلا أمي لا تختبر صبري بها يارب». حاولت مساعدتها على النهوض من أجل الذهاب إلى المستشفى لكنها كانت متعبة جداً، فاتصلت بسيارة الاسعاف التي نقلتها إلى هناك وأدخلت غرفة العناية المركزة.

* * *

علا رنين الهاتف في منزل السيد علي الفقيه، لينهض خالد على وجه السرعة باتجاهه موجها نظره إلى ساعة الحائط التي تشير إلى الحادية عشرة وبقلق أجاب فارتفع صوت بائس من الناحية الاخرى ليقول:

- خالد أمي مريضة نقلها الاسعاف إلى مستشفى المدينة، هل تستطيع خالتي القدوم إليّ؟

- أين أنتِ كيان؟ وماذا بها خالتي؟

- أنا معها في المستشفى ولؤي غائب كما تعلم، أرجوك أحتاج

خالتي

- لا بأس اهدأي خالتي ستكون بخير، سأقلّ أمي إليكِ في الحال
- نحن في الطابق الثالث، غرفة 308

أنهى مكالمته وكان خلال وقت قصير ترافقه والدته على الطريق السريع باتجاه المستشفى. كانت بين الفينة والأخرى تعيد النظر إلى ساعة يدها وبعد أن نفذ صبرها قالت والدته:

- أسرِع بنيّ، لابد أن أطمئن على صحة أختي وحال كيان، تموت بدون أمها

«كأن كلامك هذا ينقصني يا أمي»

- لقد وصلنا، قالت كيان أنهم في الطابق الثالث، ها هي هناك
- كيان يا ابنتي ماذا جرى؟ كيف هي ميرفت؟
- لا أعرف خالتي، ما زلت أنتظر، الطبيب في الداخل منذ حوالي الساعة

أما هو فوقف مبهوتاً بما يرى، كيان تحاول التماسك لكن يبدو أنها كانت تبكي، اقترب منهما، هل كانت تبكي ميْتا؟! يا إلهي ما كل هذا البؤس؟! هو يعرف أنها متعلقة بوالدتها جداً لكنه لا يتمنى أن يراها بهذا الضعف. رغم غضبه من تصرفها السابق إلا أنه تصرف في هذا الموقف بما يمليه عليه الواجب ولتذهب أيّ خلافات إلى الجحيم، قال

بصرامة:

- كيان خالتي ستكون بخير لا داعي لكل هذا القلق!

شاهد اتساع عينيها لكنه غضّ الطرف موجهاً الحديث إلى والدته

- ماما اجلسي لابد أن يخرج الطبيب في أي وقت

وهو فعلاً لم يتأخر، فما أن أتم خالد جملته حتى فُتح الباب وخرج منه الطبيب، كانت كيان قد سبقتهم إليه لتسأل عن حال والدتها وكان بدوره ينظر إليها تعلو شفتيه ابتسامة حانية وقال:

- لم كل هذا القلق، الوالدة بخير، يبدو أنها تعرضت لضغط عصبي مؤخراً، تحتاج إلى الرعاية وعدم الإجهاد أو الانفعال، سنحتاج المزيد من الفحوصات للاطمئنان على الحالة العامة للقلب، لكنها بشكل عام بخير آنستي ولا داعي للقلق

- هل نستطيع رؤيتها؟

- طبعا، لكن لا نريد إزعاجاً

نظر الطبيب إلى خالد قائلا:

- هل أنت قريب السيدة؟ هل أستطيع التحدث إليك؟

بسط يده قائلا:

- خالد الفقيه، السيدة تكون خالتي، يمكنك الاعتماد عليّ

بعد وقت قصير غادر خالد غرفة الطبيب متوجهاً الى الغرفة التي تستقر فيها خالته ميرفت فوجد والدته تحتضن كيان وكل منهما تبكي فدنا منهما وتحدث بكل الرحمة التي يمتلكها في قلبه يحثهما على الهدوء والتوجه الى الله بالدعاء وأخبرهما أن الطبيب طمأنه أن خالته ستكون بخير وما من داع للقلق. هدأت والدته إلا أن كيان لم تتوقف ولم تبدُ لديها النية لذلك فاقترح عليها أن ترافقه إلى استراحة المستشفى معللاً ذلك بأنه يحتاج إلى بعض القهوة كي يستطيع شرح ما قاله الطبيب فأسرعت والدته إلى حثها على الذهاب معه.

بعد برهة في أحد أروقة المستشفى قال لها مازحاً:

- عليكِ أن تجففي دموعكِ فلو رآنا أحد معارفي لاعتقد أنني عديم المروءة أعتدي على الفتيات وأتسبب في بكائهن

جيد أحرز تقدماً، ها هي تبتسم، قدم لها منديلا معطراً بالزهور كفيل بأن يغير حالتها المزاجية. اعتاد على حمل تلك المناديل معه بعد أن نصحته بذلك سيدة من أمريكا اللاتينية. قالت له أن الذاكرة تحتفظ بالروائح الجميلة أبدا، وأن رائحة الازهار والورود تمكّن العقل من التحول بالتفكير من اللحظة التي يعيشها إلى لحظات أخرى احتفظت بها الذاكرة، إن تكون أجمل فهذا يساعد على تهدئة أعصابه وتغيير حالته النفسية بشكل سريع وفعال. وهذا نجح فعلا مع كيان، قالت:

- إن هذه الرائحة تذكرني بشي ما

- هذا عطر اللافندر مع بعض الازهار البرية

- نعم، تشبه رائحة ملطف الشعر الذي تستخدمه أمي

- كيان، خالتي ستكون بخير إن شاء الله

- أنا السبب فيما حدث، بعد أن سمعت حديثي معك، اضطررت لإخبارها بكل شيء. لو أصابها مكروه فلن أسامح نفسي أبداً

- أنتِ لستِ السبب، هذه أقدار مقضية، لكن هذا لا يمنع أنه أنا من كان عليه التمهل والتصرف بطريقة مختلفة. المخطئ هو أنا في الواقع لكننا سنجد من يقف وراء تلك الفعلة الدنيئة، اعدكِ

- شكرا على هذه الثقة الغالية، خالد

- صدقيني كيان الثقة لا تُمنح مطلقاً، إنها حق يفرضه الانسان على الناس بحسن سلوكه ورقي خلقه وأنتِ نجحت تماما في ذلك!

- أشكر الله على وجود ابن خالة رائع مثلك

- إذن أستطيع أن أطلب لك فنجاناً من القهوة

«أردت بذلك تغيير منحنى الحديث حتى أمنع نفسي من قول أشياء أخر، فهذه الفتاة لا تعلم أنني وضعتها داخل حجرة القلب وأوصدت بابها ثم بكامل إرادتي رميت بالمفتاح إلى عمق المحيط .. سجنتُ نفسي!»

لاحقا وجدوا والدتها قد استيقظت وطلبت منه أن يستدعي الطبيب

مبدية رغبتها في الذهاب إلى البيت إلا أن كيان أصرت على أنها يجب أن تبقى بعض الوقت تحت ملاحظة الطبيب ثم تعود في المساء إلى البيت وكان هذا ما أمر به الطبيب فيما بعد. ودعهم في الثامنة للذهاب إلى عمله على أن يمر بهم عصراً.

* * *

مرض خالته ومعرفته بقلقها على مستقبل ابنتها دفعه للتفكير بأخذ خطوة عملية في اتجاه اقترانه بها، هو يود ذلك ويخطط له فلم التأخير؟ لن يستطيع أن يخبرها في الوقت الراهن بما يكنه لها من حبّ لأن كبرياءها قد يصور لها عدم صدقه مهما حاول إقناعها، لذلك سينتظر أن تتهيأ الظروف المناسبة لهذا الحديث، المهم الآن أن تصبح علاقته بها معلنة للجميع وبصفة مقبولة للمجتمع. قد نثور على بعض التقاليد البالية لكن هناك أخرى لا يمكن لنا جميعاً إلا أن نحترمها لمنطقيتها وسوء عواقب انتهاكها.

اتفق خالد مع والدته على التحدث إلى خالته بعد أن تتعافى عن رغبته في الاقتران بكيان لمعرفة رأي كليهما، وفي حال الموافقة سيتحدث مع لؤي بشكل رسمي. وقد كان ذلك بعد أيام من مغادرتها المستشفى، وباعتبار والدته أمّاً ثانية لكيان فقد استدعتها والدتها وسألتها عن رأيها فما كان منها إلا أن قالت: «خالتي أنت لستِ في حاجة إلى سماع ثنائي على خالد لكن الزواج يقع حالياً في ذيل قائمة أولوياتي وأنتِ وأنا نتمنى

لخالد السعادة التي يستحقها»

«أنا قلتُ سابقاً أنها لبقة، أليس كذلك؟ .. استطاعت استمالة والدتي وإقناعها بهذا السخف. أعلم بماذا تفكر وكيف، لذلك لن أدع لها الحبل على الغارب».

قال خالد لوالدته: «سأتحدث إليها لأنال شرف معرفة قائمة أولوياتها». **ضحكت على تعليقه وقالت بأنه عنيد كوالده إن استلزم الأمر ذلك، لكنها أضافت بأن الزواج شراكة تتطلب رضا الطرفين والإجبار لن يتسبب إلا بكوارث إن لم تكن لحظية فهي قادمة لا محالة وأضافت:** «وأنا لا أريد أن أخسر أختي خالد!».

ذهب في اليوم التالي لزيارة خالته وطمأنها بأنه لا داعي للقلق بسبب تلك المشكلة السخيفة (يقصد تلك التي تسببت بمرضها) وأنها مسألة وقت وستُحل، ثم أخبرها عن رغبته بالتحدث مع كيان، التي انضمت فعلاً إلى جلستهم بعد فترة ليست بالقصيرة واستأذنت خالته بعد قليل بحجة الاستعداد لصلاة المغرب. «كم هو رائع أن تكون لديك خالة!»

- **كيف حالك كيان؟**
- **بخير، الحمد لله، كيف أنت وخالتي؟**
- **ماذا تتوقعين؟**

- ...

- بخير، نحن بخير لكننا لم نكن سعداء بقرارك

- ...

- هل لي أن أعرف إن كان اعتراضك على شخصي أنا؟

كانت تشتت بصرها هنا وهناك بينما تخرج الكلمات من بين شفتيها بطيئة وعلى استحياء:

- خالد .. أنت .. تظلم نفسك بهذا السؤال وتعرف جيداً أنكَ .. شخص لا يرفضه عاقل!

- هه! والتي رفضتني تعاني الجنون وأنا لا علم لدي؟

قال بسخرية واضحة

- الأمر هنا مختلف صدقني، أنت تقدمت لجبر كسر تسبب به غيرك وأنا لا أقبل لك تلك التضحية

- تضحية؟! أنا تقدمت بكامل وعيي وأعرف ما الذي أريده ولم ولن يجبرني أحد على فعل ما لا أطيق، هذا أولا، أما ثانيا فمسألة الكسر ما هي الا اختلاق صوره لك عقلك في لحظة .. جنون؟

- لذلك أعتقد بناء على هذه المعطيات أنكِ تعانين فعلاً من بعض الجنون.

قال مبتسماً وأردف:

- لكني مستعد لـ .. للتضحية

- أمامك من الفتيات ألف، ربما مائة ألف، فلم الاصرار؟!

- تسطيعين القول بأن لدي أسباباً كافية لاتخاذ هذا القرار وفي النهاية هذه اختياراتي، وأنا من عليه التعامل معها. انظري، هو عقد قران يجب أن يُعلن لإرهاب من تسول له نفسه أذيتك، ما أن تُحل المشكلة نستطيع التفاوض، إما برفقة عمر أو بفرقة مهذبة. ولا تنسي في هذه المعادلة خالتي، هي بحاجة لأن تطمئن عليكِ

- انتهيتَ بأصعب متغير في المعادلة، والدتي! أنا فعلا أتمنى أن أخفف حِملها لكني لا أريد لك هذه التضحية

- سأعتبر هذا موافقة مبدئية وسأنتظر منكِ تأكيداً على ذلك بأي طريقة تفضلين. سأنصرف الآن، وأتمنى ألا أنتظر جوابك طويلاً

غادر خالد وتركها تتخبط في الحيرة وتعاتب الظروف التي وضعتها في هذا الموقف، هنا لا يشفع لكِ من أنتِ ولا كيف أنتِ، ما يهم فقط أنكِ فتاة يجب أن تُصان، يجب أن يكون تاريخها مشرفاً بشهادة المحيطين بها وليس بادعائها هي. مجتمع يضع حياة كل فتاة تحت المجهر ويصغي للقيل والقال، لا يصغي لصوت المنطق ولا قانون العقلاء. أن تُوضع هي في كفة ميزان في حد ذاته انتقاص يقتل بدم بارد!

هي لا تنكر أنه يربطها بخالد إحساسٌ جميل لكنه لن يعني شيئاً إن لم يكن هو يبادلها نفس الشعور أو على الأقل على استعداد لذلك كما أنها لا تملك جواباً شافياً وراء دوافعه لتلك الخطبة المزمعة، لكن وكما قال هو إما برفقة أو بفرقة، المهم أن تكون والدتها بخير. نذير الشؤم هنا أن هذه ستكون الثانية وستصبح هي فعلياً مدانة بحكم المجتمع. ما يهدئ من روعها هذه المرة أنها تكنّ لخالد شعوراً جميلاً وستحاول أن تُنجح هذه العلاقة وإن كانت تعلم أنه لا يمكن أن يُجبر إنسانٌ على حبّ إنسان، لكن قلبها يخبرها أن الأيام القادمة ستكون بإذن الله أجمل. أخبرت والدتها ليلاً أنها موافقة على طلب خالد فاتصلت بأخيها لؤي – رجل البيت– الذي تولى بدوره مهمة نقل الرد إلى خالد. «كم أفتقدك في هذه الظروف يا أبي، يبدو أن قدر ابنتك الوحيدة النزول عند حكم الأولويات».

* * *

تم عقد القران في المحكمة المدنية ووجهت والدتها الدعوة إلى عائلة خالد لتناول طعام العشاء بهذه المناسبة الخاصة ولبّوا هم بكل سرور. كانت كيان قد أخبرت خالد من قبل أنها لا تود إقامة حفل لعقد القران لعدم ملائمة الظروف فاستجاب هو لذلك دون أي جدال أو مناقشات مما زاد من ألمها وحيرتها. أن تحظى بعقد قران لا يُنسى لا يعني أن تقيم حفلة كبيرة تحوي ما لذّ وطاب مما يُؤكل ويُسمع وأن تدعو إليها القريب

والغريب، جمال هذا اليوم مرتبط بإحساسك به وما يسيطر على نفسك من فرحة ورضا، وهذا الشعور -والشكر لله- ليس شيئا مادياً يمكن أن يسلبه منك أحد، هو شيء إما أن تملكه أو لا وأنت الوحيد الذي له القرار. ولأنها سعيدة بأن يربطها بخالد هذا الميثاق بغض النظر عن أي منغصات فقد قررت الاستمتاع بهذه الأمسية. اختارت ثوباً رقيقاً اقتنته مؤخراً في إحدى جولات التسوق، يختلط فيه الابيض بأزرقٍ بارد في خليط رائع. وضعت بعض الزينة وبعض الحليّ البسيطة وتركت شعرها منسدلاً. كان مظهرها في نظرها بسيطاً لا تكلف فيه ولا مغالاة لكن المديح الذي تلقته من الجميع -عدا خالد- يوحي بأنها كانت عروساً متوّجة.

كان لؤي هو من استقبل عائلة خالته ومن بعيد وقعت عليها عيناه، «يا إلهي العزيز!» هو يعرف أنها جميلة لكنها كانت فاتنة! وهو يجب أن يلتزم الحدود خصوصاً بعد الطريقة الغريبة التي تم بها الاتفاق على عقد القران. «ألم تقل أنها لا تريد حفلاً، فلم هذه الزينة إذن؟!» سمع الجميع يثني على مظهرها إلا أنه لم يعلق، فلو نطق لأمكنه نظم شعرٍ لكنه لا يريد لذلك أن يحدث على الملأ، ليس أنه يخجل من ذلك لكنه خشي من ردة فعلها هي. بعد العشاء بحث عنها فلمح طيفها في الشرفة وتوجه إلى هناك. «الجميلة والقمر» هذا ما خطر بباله حين رآها تحدق في نجوم الليل وقمره، بماذا عساها تناجيه؟ أصدر صوتاً يخبرها بقدومه فالتفتت إليه مبتسمة في خجل فسألها:

- ماذا تفعلين هنا؟
- أستنشق بعض الهواء، الجو خانق في الداخل
- هل أنتِ بخير؟
- أنا .. بخير
- هل أُحرجكِ إن قلت أنكِ فاتنة؟

ولم ينتظر الجواب فارتعاش عينيها تكفل بإخباره الحقيقة

- اعتقدت أن رأيك هو العكس تماماً
- ماذا؟!

«مهما كانت حواء ذكية إلا أنها أحياناً تسيئ تقدير الأمور على نحوٍ يثير الغيظ!»

- أنت لم تقل شيئاً قبلاً
- أولاً أنت تبدين ساحرة وتطيحين بلب أي رجل، هذا من منطلق المظهر أما الجوهر فأنا لدي فكرة رائعة مسبقاً لستُ بحاجة لأن أعيدها على أسماعك إلا إذا كنت من عشاق المديح، وثانياً أنا لم أشأ إحراجك أمام الأهل لذلك انتظرت اللحظة المناسبة
- شكراً لك، وبالطبع أنا لستُ بحاجة للثناء على مظهرك فأنت تعلم أن أناقتك تفوق وصف الكلمات، هي تكمل الطبيعة التي حباك الله بها

التفت حوله قبل أن يسأل:

- أنت تحدثيني، أليس كذلك؟

- بلى، وهذه حقيقة لابد أنك تعلمها وتذكر بالطبع ردود فعل الجمهور يوم الحفلة

- أنا أذكر أنني قلتُ لكِ أنني لا أهتم لرأي الجمهور، ألم أقل؟! أما إذا نظرنا إلى أن هذا رأيك من بينهم فهذا إطراء يرفعني للسماء، ألا تظنين؟!

- لا تتواضع يا ابن خالتي

قالت مبتسمة:

- أعتقد أنه باعتبار ما كان فأنا قانوناً زوجك

وتلك الابتسامة تحولت إلى رعشة في الشفتين وحمرة قانية على الخدين. اقترب منها وأخرج من جيبه علبة تحوي خاتم زواج اشتراه لعلمه أن الوقت لن يسعفهم لإنجاز مثل هذه التفاصيل وهو لم يُرِد أن تمر هذه المناسبة بدونه، إنه لحظة مميزة في حياة كل فتاة.

- هل تسمحين؟

وضع الخاتم في إصبعها وطبع قبلة على راحة يدها خاتماً الموقف ب «تهانيّا» وتراجع.

ولو انتظر أكثر لسمع صوت دقات قلبها التي تقرع كالطبول «هل

يمكن لهذا المساء أن يكون أجمل؟!»

- كيان، هذا لك، أؤمن أنــه يناسـبك جـداً وأتمنــى أن يكـون لـكِ نفس الرأي

قال مبتسماً وأعطاها الخاتم الذي اشتراه أثناء سفره للشمال.

فتحت العلبة فظهر لها خاتم في قمة الروعة، «هل قال أنه يناسبني؟ خالد! هل يمكن ألا أحب هذا الرجل؟!»

- هذا حقاً رائع! خالد .. شكراً

- شكراً جافة لا تسمن ولا تغني؟!

قال مشاكساً إياها كعادته حين لا يمكن تحويل ما يدور في الخلـد إلى كلمات منطوقة.

- كيان حبيبتي ألف مبارك لكِ،

كان صوت خالتها هو ما أنقذها من تلك الدوامة.

- سلمتِ خالتي

- هل أضع خاتمي بنفسي أم تودين القيام بذلك؟

قال خالد مستفهماً فردت والدته:

- أعطها الخاتم يا فتي، هذا الموقف لا يتكرر كثيراً لـذلك يجـب أن تغتنمي الفرصة حبيبتي

ومرة أخرى ظنت أن وجود خالتها في هذا الموقـف أفـضل بكـثير مـن

غيابها. وضعت الخاتم بسرعة لكنــه لم يـترك يـدها، شـعرت بـالحرارة تسري من أخمص قدميها حتى قمة رأسها وانتبهت على صـوت خالتهـا تقول:

– عملكِ أحضر حِلوى قال بأنها خاصة لهذه المناسبة، هيـا يجـب أن نتناولها معاً، الجميع ينتظرون في الداخل

* * *

«هل حدثك أحدهم عن الحب؟ أو ربما عرفته يوماً؟ سأبوح إليكَ أنا بما أعرف. فقد أصابني سهم الحب في عمق القلب فحقنه بمادة سحرية انتقلت منهُ إلى كـل حواسـي. تلونـت الـدنيا حـولي بـألوان قـوس قـزح وانتـشرت الألحان في كل مكان وملأ الجو أريجٌ يذهب بالألباب. شيءٌ مـا تغـير بـي، أصبحت أبتسم للأزهار، أحدث الشجر وأسابق نسمات السَّحر. أشـعر كمـا لو أنني أسير على أصابع بيانو فتعلو بين خطواتي أعـذب الالحـان. أصـعد الى سطح المنزل أراقب النجوم، أغمض العينين وأبثها اسراراً لم يعرفها عـن الحب أحدٌ غيري، أو هكذا اعتقدت. يد الهوى مسحت على رأسـي فكـان لها أعظـم الأثـر، أصـبحت أحنـو علـى الحيـوان والنبـات، حتـى والـدتي وأختي صرتُ أعاملهما بلطف أكثـر. شـعرتُ بالمسئولية تجـاه كـل شـيء، وعشقتُ النجاح!»

بينما كان خالد يناجي نفسه تحت سماء تلمع بـالنجوم كانـت كيـان

مستغرقة في نومٍ هانئٍ حبسته عنها الظروف لفترة اشتاقت معها إليه. بالرغم من أن المشكلة لا تزال قائمة لكنها تشعر الآن أنها في أيدٍ أمينة، ثقتها بخالد عظيمة وقد كانت سلفاً كذلك لكنها الآن تنتمي إليه وهناك فرق، أليس كذلك؟ بعد أن تناولت إفطارها وقهوتها بصحبة والدتها وأخيها توجهت إلى العمل بكل همة ونشاط. في طريقها اشترت بعض الحلويات من أجل زملائها وتلقت منهم التهاني والتبريكات وقد بدت على الكثير منهم السعادة لذلك الخبر، تسابقت الفتيات على قرصها معللين بأن ذلك فأل يجلب البشرى.

بعد أن انفض الجمع ذهبت إلى مكتبها فالتقت في طريقها أسامة الذي قال: «مبارك للعروس، ألستِ من لا تفكر بالزواج حالياً» بنبرة خُيّل إليها أنه تشوبها السخرية فقد اقتبس ردها على طلبه السابق برفض لبق معللة ذلك بأنها لا تفكر بالزواج. لكنها لم تعر سخريته اهتماماً فرغم الهدوء النسبي بينهما الآن إلا أنها ليست مجبرة على تقديم أي تبريرات.

كانت قد مرت على ذلك أيام حينما أرسل المدير في طلبها، تحدث عن إهمال في كتابة التفاصيل الخاصة ببعض الحالات المستجدة في المؤسسة وأنها المتهمة بذلك التقصير ولديه أدلة من خلال بعض الملفات التي تحمل توقيعها. قال أنه يكتفي بتحذيرها هذه المرة مهدداً باحتمال خسارتها لوظيفتها إن تكرر الأمر. كان صارماً جداً بشكل غير مبرر

خصوصاً وهو يعلم مدى اجتهادها في أداء وظيفتها. هناك خطأٌ ما، لا شك!

لحسن حظها كان ذلك قبيل موعد انتهاء الدوام فاتجهت بعدها مباشرة إلى البيت، لا تدري كيف استطاعت القيادة وهي على ذلك القدر من الغضب، لقد أهانها ووبخها لذنب لم تقترفه ويهددها بطردها من العمل! حاولت الدفاع عن نفسها وتوضيح عدم قبولها بذلك الاتهام إلا أنه لم يمهلها. رأتها والدتها على تلك الحال وأرادت فهم السبب إلا أن كيان تحدثت ببعض جمل توحي بضيقها وعدم رغبتها في الشرح فاكتفت والدتها بضمها والتربيت على ظهرها حتى تهدأ ثم حثتها على أخذ حمام ساخن يغسل همومها ويعيد إليها الحيوية المسلوبة ولأنها لم تكن رغم ذلك في حال أفضل فقد ارتدت منامةً وجففت شعرها أملاً في نوم طويل. ولأن الحظ حريص على معاكستها فلم تستطع تهدئة عقلها ولم تزر الغفوة عينيها. سمعت طرقات خفيفة على باب غرفتها

- ادخلي ماما
- أنا .. خالد

«خالد؟!»

- سأبدل ملابسي وألحق بك في الصالة

ولأنه أدرك حشرجة صوتها قال:

- ما من داعٍ لذلك كيان وإن لم يكن في ذلك إزعاج لكِ أتمنى أن تسمحي لي بالدخول

- أبداً، الباب مفتوح

كانت تقوم بإزاحة ستائر غرفتها حين دخل لكنها ما إن استدارت ورحبت به حتى استطاع تخمين كم هي متضايقة وحزينة. دنا منها وسأل:

- ما بكِ كيان؟

- لا شيء .. أنا بخير

- نعم، في الحقيقة أستطيع رؤية ذلك بوضوح

كان قد جلس على أريكة في صدر المكان بينما اختارت هي السرير لجلوسها، والآن تشتت نظرها يميناً ويساراً وتحاول منع العبرات من التجمع في عينيها لكن حركة حلقها وشت بها، ثم تدافعت العبرات سقوطاً معلنة فشل أي محاولة منها لإخفاء الأمر عنه والآن صار يجلس إلى جوارها. مسح برقةٍ على ذراعها صعوداً وهبوطاً وهو يسأل ما الأمر إلا أنها لم تكفّ عن البكاء فما كان منه وهو يراها في تلك الحال إلا أن ضمها إلى صدره وأخذ يربت على ظهرها وشعرها هامساً بلطف أنها بخير وسيكون كل شيء بخير لكنها استمرت في بكائها الذي شعر به يبلل قميصه. بعد حين هدأت نوبة بكائها وأرادت النهوض إلا أنه لم

يسمح لها. ربما يكون هو الآن أحوج منها إلى ذلك الهدوء، ثم بعد دقائق أخرى قالت:

- أريد أن أغسل وجهي

سمح لها فغابت لتعود بحال أفضل، وقالت بامتنان:

- آسفة على إزعاجك خالد و .. شكرا لك

- لم تزعجيني لكني أتمنى أن الأمر يستحق فدموعك غالية و .. عفواً دوماً في الخدمة

حدثته بما كان من مديرها فانزعج فعلاً

- كل هذه الدموع من أجل كلمات قالها مديرك؟!

- ليست كلمات، هو اتهام وتهديد بالطرد!

- انظري إليّ، مشكلتك أنك تأخذين الأمور دوما بشكل شخصي ودوماً تفترضين أنكِ قصرتِ في أمر ما، لكن الحقيقة قد تكون بعيدة كل البعد عن ذلك. بعد الخبرة الطويلة أستطيع أن أنصحك بتوجيه اللوم في المرحلة الأخيرة لنفسك إذا استنفذتِ طبعاً كل الاسباب البديلة وحاولي أن تهوني عليك، الدنيا تعطي وتأخذ ولو عالجت كل الأمور بأعصابك فستنفذ طاقتك باكراً جداً، وهذه ليست طريقة الأقوياء.

- لكنه اتهمني وانتقص من قدراتي

- وهناك اتهام آخر ينتقص من كرامتك بل ويريد إذلالك، ولو

- نعم وأنت من أخذ على عاتقه إصلاح الأمر

- سأتجاوز عن هذا الحمق مراعاة للظرف، لكن كيـان مهمـا كـان جبروت الظروف فلن يقهره سوى القوة، وبالذات العقلية منهـا، ماعـدا ذلك مضيعة للوقت والطاقـات، والبكـاء قطعـا أسلوب الـضعفاء وأنـت لا تودين الانتماء لقائمتهم أليس كذلك؟

- هل تعلم أنك ستكون أباً فريداً من نوعه لابنتك؟

أرادت الثناء عليه فاختارت ما أوقعها في ورطة وقد عكست ملامحـه ذلك

- ما يهمني أولا هو أن تكون أمها أنتِ .. بكل ما يشمل ذلك مـن تفاصيل

ولم يضف، أي إضافة في هذا المكان وهـذه الحميميـة سـتكلفه الكـثير من العناء والمسألة لا ينقصها أية تعقيـدات! أمـا هـي فابتلعـت لـسانها، تلعن غباءها حتماً. ولختم الموقف قال:

- لقد وعدت خالتي إحضارك لتناول العشاء، هيا بنا

- أشعرِ الآن أن لدي شهية لوجبة كبيرة جـدا. خالـد .. مـن كـل قلبي أشكرك وأشكر الله قبل كل شيء وبعده الـذي قـدّر أن تكـون .. ابـن خالتي

تمنت لو تقدمت وطبعت قبلة شكر صغيرة على جانب وجهه كتلك التي تمنحها لوالدها أو لؤي حين يغمرها عطفهم لكنها بدلاً عن ذلك قالت:

- هيا بنا

* * *

أعاد خالد التفكير مجدداً في أمر الصور، ومَن مِن الممكن أن تكون له في ذلك يد، لكن تفكيره لم ينتهِ لشيء ذي فائدة خصوصاً وأنه كان بعيداً لفترة طويلة ولا علم لديه بدائرة معارفها. كان رأيه تجاهل الموضوع كلياً ونسيانه لكنه يعرف أن كيان وكذلك لؤي لن يسلّما بذلك وهو بدوره لا يريد إعطاء الفرصة لأحد للتحدث عن خطيبته بما يهين، يلعب ذلك الأحمق في عداد عمره! لذلك لابد أن ينتهي من الأمر عاجلاً وإغلاق صفحته إلى الأبد، ويبدو أن القدر كان معه على موعد فعندما وصل البيت باكراً على غير العادة رأى مها تقف على آخر الرصيف من الناحية الأخرى تتحدث إلى شخص ما وما أثار اهتمامه أن هذا الآخر لم يكن إلا أسامة. هي من أخبرته سابقاً بلقاء كيان وأسامة في المدينة والآن مها ذاتها تتحدث إليه. في الأمر شيء غير مفهوم ويثير الشك. أدخل السيارة إلى المرآب وقرر التباطؤ ليرى ردة فعلها حال رؤيته. كان في طريقه إلى المدخل عندما رأته

- دكتور خالد أأ .. مرحبا اعتقدت أن هذا وقت عملك

- أهلاً، ذلك صحيح لكن الوالدة طلبت مني إحضار دوائها ولم أكن لأتأخر

- هل هي مريضة؟ .. سلامتها

- لا أبداً، هي مقويات تأخذها بانتظام. بالمناسبة هل من جديد؟

- أأ .. نعم، أعني أتمنى أن يكون خلال أيام

- جيد، وداعاً

تأكد أن في الأمر سراً ما وهو يرجو ألا يطول الوقت دون انكشافه والبداية ستكون من عند مها «ربما كانت ريبة والدتي في محلها». طلب الهاتف الموصول بشقتها وعندما أجابته طلب منها النزول. كان واضحاً تماماً منذ بدأ معها حديثه:

- انظري مها، أنا عندما قررت مساعدتك لم أُصغِ السمع إلى كل الاعتراضات التي وُجهت إليّ لأن مبادئي تمنعني من تجاهل مدّ يد المساعدة لامرأة في محنة. أنا لا أنتظر منكِ مقابلاً لكني سأسألك لمرة واحدة وأرجو أن تخبريني الحقيقة، ما هي علاقتك بأسامة محمود؟ وبالتأكيد لا زال بإمكاننا إصلاح أي خطأ .. فقط أريد الحقيقة.

لم تستطع المراوغة وضميرها الذي لا زال ينبض أجبرها على إخباره الحقيقة كاملة، حتى لو أثارت غضبه، فقالت:

- خالد، أنا أعلم أنك ستغضب ولست ألومك لكن صدقني لدي

- كان يمكن أن أعفو عنه لو كـان الأمـر يتعلـق بـي فقـط أمـا وقـد

أساءت تصرفاتك إلى كيان فالصفح الآن صعب، لكن لنقُل أن الأيام كفيلة

- أنا حقاً آسفة

- لا بأس الآن، متى ستغادرين؟

- الليلة

- سأعطيك مبلغاً من المال لتتدبري شئونك في الأيام المتبقية قبل سفرك. لكِ أن تعتبريه ديْناً إن أردتِ. حظاً موفقاً

- شكراً لك وآسفة مرة أخرى

قالت ذلك بصوت أثقله الأسف ورأى خالد في عينيها دموع الندم.

* * *

خالد لا يعلم يقيناً إن كانت لأسامة علاقة بموضوع الصور لكن أغلب الظن أنه كذلك. أخذ هاتفه وطلب رقم الهاتف النقال الذي أخذه من مها. بعد بضع رنات أجاب الطرف الآخر .

- مرحبًا، من المتحدث؟

- مرحبًا أنا خالد الفقيه، هل أتحدث إلى أسامة محمود؟

- أنا أسامة .. ما الطارئ الذي دفعك لمحادثتي دكتور؟

نبرة صوته تحمل شيئًا من الاستهزاء لكن خالد رد بعملية واضحة:

- أريد رؤيتك لأمر هام وعاجل

- ومن قال أن لدي نفس الرغبة؟!

– أسامة، المسألة لا تحمل المزاح أو المماطلة

التهديد في صوته كان واضحًا

– هذا يعني أنني لا أملك الخيار؟ لكني بالطبع أملك أن أطلب منك ألا تطيل عليّ؟

«يا لك من وقح، لنرى إلى متى»، تجاهل رعونته وقال:

– نحتاج مكانًا مناسبًا نتحدث فيه بهدوء، مقهى لن يكون مناسبًا، إما أن تأتي إلي في مكتبي

– أو تأتي أنت إلي في شقتي، فأنا أقيم بمفردي

– الليلة؟

– سأنتظرك عند الثامنة

وفي تمام الثامنة كان يضغط على جرس شقته. فكر مرارًا في طريقة الحوار ومجراه، من أين يبدأ وإلام ينتهي. لديه رغبة عميقة في تهشيم عظامه، لكن ما هو المكسب العائد عليه من ذلك؟ صناعة الأعداء تجارة خاسرة! علمته السنون أن يفكر مرة وأخرى قبل أن يضع نفسه في موقف يجني منه كره إنسان. بالإضافة إلى أنه تعلم أن يفكر ببعض الرأفة في الطرف الآخر ودوافعه. كلنا بشر وكلنا قد نسيء تقدير بعض الأمور وكلنا قد تحتم عليه الظروف أفعالاً ما كان ليقدم عليها لو امتلك الوقت الكافي للتفكير في الأمور بروية. وكلنا يمر بلحظات ضعف يكون معها

الفعل نابع من سيطرة قوة الشر على قوة الخير المسير الفطري للنفس البشرية. وبعد كل وهذا وقبله، إنسانيته تأبى عليه إلا أن يكون رحيماً، فالأيام دول.

أخرجته تحية أسامة من غياهب نفسه، فألقى التحية وصافحه فدعاه الأخير للدخول. عرض عليه قهوة فقبلها وعاد أسامة بعد بضع دقائق يحملها قائلاً:

- أفترض أن ما أحضرك إليّ على وجه السرعة بالغ الأهمية والخطورة

«مازال يراوغ، يتطبع كالكثير من البشر بصفات المراوغة والكذب وأنا أمقتها حد اللا حدّ»

- معك حق .. كيان

- كيان؟

- أعني كيان هي السبب وراء هذا الالحاح العاجل. هناك من تعامل معها بوضاعة وحاربها بطريقة غير شريفة متجاهلاً كل القواعد، وباعتبارك زميل معروف بمكانتك هناك، أردت رأيك في الأمر

لاحظ انكماش عضلة فكه وانتظر حتى أجاب:

- أنا لا أنكر أن كيان إنسانة ناجحة ومميزة

- الإنسان القدير لا ينكر قدرات عدوه

- لكننا لسنا أعداءً

- لا؟

- بالطبع لا! لكنها أهانت كبريائي يومًا ثم لماذا تسأل؟ ماذا تريد مني بالضبط؟

- أريد أن أعرف لماذا لفقت لها صورًا باطلة

- ماذا؟

- سمعتني ولا تنكر لأن الأدلة باتت في يدي «ليس تماماً»، واعلم أنني لست هنا إلا لأفهم منك بشكل ودّي ولم ولن أتخذ أيّة إجراءات قانونية ضدك رغم امتلاكي كما قلت أدلة إدانتك

- ...

- أسامة، ربما يعينك أن تعرف أنني تغربت عن وطني لمدة تتجاوز العشر سنوات، عايشت فيها الكثير، أخطأت وندمت وتعلمت وتغيرت إلى أن أصبحت شخصًا جديدًا دينه واحد وعقيدته الحبُّ. ليس عيبًا أن نخطئ، بل نحن هنا لنخطئ، لكننا مسئولون عن عدم الاستمرار على الخطأ. تمنحنا الحياة فرصًا وأخرى لنصحح ونتقدم، والأحمق هو من لا يستغل تلك الفرص. لا تخدعك المظاهر، كلنا ظالمون – لأنفسنا بالدرجة الأولى– لكن الفرق أن بعضنا يملك القوة ليتغير نحو الأفضل والجبان هو من يدخل بوابة الحياة ويخرج منها على نفس الصورة دون

- ماذا تعرف أنت عن المعاناة؟ .. توفيت والدتي ولم أتجاوز السبع سنوات وتركتني لوالد تزوج بعد زمن قليل متعللاً بأنه يحتاج إلى زوجة ترعاني وتقوم على راحته فما كان منها إلا أن أشعرتني بيتم الأم والأب معًا. كانت فظة قاسية لا تعاملني كأطفالها أبدًا وتفضلهم عليّ في كل شيء. زرعت فيّ منذ الصغر كره من هم أفضل وضعًا مني فلجأت إلى العنف مع زملائي في المدرسة حتى قيل أنني ولد مكروه وكبرت على ذلك الإدراك ولم أولي الأمر اهتمامًا فآخر ما يهمني هو رأي الناس، ماذا قدم لي الناس؟ لحسن حظي حصلت على بكالوريوس اللغة الانجليزية بدرجة جيدة جدًا واستطاع خالي بعلاقاته أن يوفر لي وظيفة في مؤسسة البشير -التي تعمل فيها كيان- وكنت حريصًا على الارتقاء بدرجتي الوظيفة بكل السبل التي لم تكن كلها مشروعة. عندما قابلت كيان للمرة الأولى أحسست بأنني لابد أن أتغير، أسرني الصفاء الذي يحيط بها، الرقة التي تغلفها، كانت عيناها تبتسم!

«أوه، أنا يمكنني الصبر لكن هذا كثير!»

- أرجو ألا تثير غضبي أسامة!

- لستُ وتراً حساساً؟

سأل بسخرية ودون أن ينتظر منه جواباً أكمل:

– مع ذلك فقد كانت تتحدث بعزيمة واضحة وثقة عالية، لم تكن من النوع الذي يحترف النفاق للوصول إلى مبتغاه. كان الكل يعرف أنها تلقي ما في جعبتها بشجاعة رهيبة خصوصًا إذا كانت مؤمنة بحجتها. أعجبتني فدائيتها، ذكرتني بنفسي، فبدأت بالانجذاب إليها وحاولت التلميح لكنها كانت تتقن فن التجاهل، لم تمنح اهتمامي فرصة مطلقًا رغم أدبها في التعامل معي، لكن تلك عادتها مع الجميع. أردت معرفة إن كان شخصٌ آخر هو سبب تجاهلها لي ومن مساعدتي الخاصة حاولت السؤال عن دائرة علاقاتها والأشخاص الذين تذكر أسماءهم في حديثها وتوصلت إلى اسمك بالإضافة إلى لؤي الذي أعرف أنه أخوها.

«كانت تتحدث عني إذن»

ما كانـت تفعـل ذلـك إلا لأنهـا أرادت تجنـب النظـر إلـيّ- نظـرت إلـي وشكرتني على رغبتي ثم قالت أنها ستفكر بالأمر وتبلغني ردها والـذي جـاءني في اليـوم التـالي برسـالة نـصية علـى هـاتفي المحمـول الخـاص بالمؤسسة: «صدقني لو أخبرتك أنني لا أستطيع، ليس الأمر متعلقاً بك، إنه فقط.. فقط عرض متأخر جداً» وفهمت أنها -على الأرجح- تقصدك أنت.

«كان ذلك قبل تقدمي لخطبتها، لماذا قالت ذلك؟»

- كنت مكسور الخاطر لكني لم أفقد الأمـل فتحـدثت مـع المـدير حول فشل كيان في إنهاء مهمة كانت مكلفة للقيام بها واقترحت عليه أن أنضم إليها فوافق وكنت أنا أرنو الى التقرب منها في الوقـت الـذي كانـت فيه مها تتكفل بإبعادك. ولأن النوايا الحسنة لا تبرر الفعل الـدنيء فقـد أفشلت أنت مخططي بتقدمك لخطبتهـا، وطبعًـا هـي لـن تـرفض شخـصًا بمكانتك العلمية والاجتماعية

عند هذه النقطة كان لابد لخالد ان يوقفه وقال:

- لابد لك أن تعلم أنه لو كانت هذه هي المعطيـات الـتي جعلتهـا تقبل طلبي فلن يبهجني ذلك بل وسأرفض فتاة تفكر بهـذه الماديـة. تلـك التي أبحث عنها «إنسانة» تستحق أن تكون رفيقة درب والأهم أنهـا لـن تمنحك قلبها إلا إذا منحتها الأسباب الكافية لتثـق بـك!وإنـسانة بهـذه المعايير لا يمكن لها مطلقاً أن تفكر بماديـة ولا يمكنهـا «تـشييء» علاقـة إنسانية حساسة كالزواج!

تابع أسامة سرد التفاصيل دون ردة فعل أكثر من هزة رأس وعينين مقفلتين بألم.

- كانت مها تسألني متى سينتهي دورها في هذه اللعبة السخيفة -على حد قولها- بينما لازلت أتشبث بأمل أن تنجح في إبعادك عن كيان. هذا أنا في النهاية طفل أحمق يتسول الحب والعطف من سيدات رفضن البقاء معه. يمكنك ضربي إن أردت أو اتخاذ الاجراءات التي تحلو لك لكني أستطيع أن أقسم لك أن الصور لا يعلم عنها أحد سوى أنت ولؤي ومها لديها فقط تصور عن الموضوع.

- لو أردت ضربك لما أتيت إليك هنا في بيتك. ورغم الفعل الدنيء الذي قمت به إلا أنني أستطيع أن أتفهم موقفك. لست أبرر لك، لكني أستطيع أن أتجاوز عن الأمر وأنساه لكن عليك تصحيح الانطباع الذي تركته لدى المدير والاعتذار لها في يوم من الأيام، وسأشرح لها أنا الموقف باختصار ليطمئن قلبها والأمر برمته لابد أن يُنسى.

قال خالد ذلك بنوع من الصرامة والتهديد المبطن. هذه المرة غفر واحتاج طاقة هائلة لفعل ذلك خصوصًا أن من تم المساس بها هي فتاة أحبها وهو يعلم كم أشقاها ذلك، يكفي ما حدث لوالدتها. الغفران قد يجعل من عدوك حبيباً لكنه أيضاً قد يعطي الفرصة للوضيع ليتمادى في وضاعته، واختيار أحد الأمرين يحتاج إلى بصيرة حكيم.

لم يكن هناك المزيد لقوله فودعه ورحل يفكر في طريقة ليخبر كيان بالأمر دون أن يثير فضولها للمزيد من التفاصيل. يريدها فقط أن تطمئن بأن الأمر قد انتهى ولا حاجة إلا تفاصيل لا طائل منها خصوصاً أنها سترى أسامة خلال عملها كل يوم.

* * *

زيارته لأسامة بددت كل مخاوفه وأراد خالد الذهاب من فوره لبيت خالته لكن ولانشغاله ببعض الأعمال التي كان عليه إتمامها لم يستطع زيارتهم إلا بعد ثلاثة أيام من حديثه مع أسامة. كان ذلك مهماً أيضاً ليعطي أسامة فرصة تصحيح غلطته خصوصاً فيما يخص موقف المدير. لكنه ترك لها هدية في صندوق البريد أثناء طريقه إلى العمل. أرفق مع هديته رسالة كتب فيها:

«عزيزتي كيان .. هذا الكتاب عمره يتجاوز العشر سنوات وهو واحد من الأشياء التي أريد أن أحتفظ بها أبداً .. هو ديوان شعري بعنوان «زهرة القمر*» ..كتبه شاعر في القرن التاسع العشر. كانت ملهمته ممرضة سهرت على راحته خلال فترة تواجده في المستشفى، كان يراها فقط في فترة نشاطها خلال عملها الليليّ لذلك أطلق على الديوان اسم زهرة القمر .. فيه قرأت كل ما يمكن أن يُكتب في معاني الحب .. أرجو

---

*زهرة القمر هي نوع من أنواع الزهور التي تزهر وتتفتح ليلاً. بعض الأزهار لها لون أبيض وبعضها الآخر أزرق اللون ولها شكل مخروط مقلوب.

أن تستمتعي به كما استمتعت أنا!»

انتظر المساء التالي بفارغ الصبر، لأن العوائق التي كانت تمنعه من التقدم خطوات إلى الأمام قد زالت، ذهب إليها وكله شوق وبقلبه يعصف الحنين. كان يحدث نفسه بالتمهل ولكنه ما إن رآها حتى ذهبت توصياته لعقله أدراج الرياح. من الارتياح الذي يزين محياها والنجوم التي تلتمع بعينيها تساءل إن كانت تعرف شيئاً، لكن ذلك غير ممكن فقد كان حديثه مع أسامة واضحًا. في طريق اتجاهها نحوه كان يتأملها بينما يوجه الأوامر لقلبه أن يهدأ، لكنه كان هذه المرة عصيًا وهذا ما كان يخشاه. عندما وصلت إلى حيث يقف رفعت يمينها للسلام فتجاهل يدها وخطا إلى الأمام خطوة ليحيطها بكلتا ذراعيه، أسفل ذقنه يلامس قمة رأسها وإلى أنفه تصل رائحة ملطف الشعر الخاص بها «يبدو أنها لم تخبرني الحقيقة كاملة حين قالت أن خالتي تستخدم ملطف شعر برائحة اللافندر!»

بعد برهة سمعها تسأل بنبرة يخالجها القلق:

- خالد، ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟

أبعدها عنه قليلاً ليتسنى له رؤية عينيها وليته لم يفعل فليس بوسع هذا القلب أن يصمد أكثر! لم يقم سابقا على بأي مبادرة معها لأنه أراد

التيقن من أنه قادر على حمايتها وإشعارها بالأمان قبل أن يستحقها فعلاً. قال ببطء وأنفاس مثقلة:

- أنا .. بخير .. وأنا .. آسف

وبينما كانت تعقد حاجبيها لعدم فهمها ما يرمي إليه كان هو قد ترجم الفكرة التي جالت برأسه إلى فعل. وكان اللقاء .. قصيرًا عذبًا، لكنه من جانبه هو فقط أما الحبيبة فقد كانت ولا زالت في طور الصدمة. منذ حديثه مع أسامة وهو يشعر برغبة جارفة للاطمئنان بأنها لن تكون إلا مكملة لحياته هو، تنتمي إلى قلبه هو! أسرف على قلبه بالتوصيات إلا أنه لم يستمع إلى أيٍّ منها والشكر لله أنه لم يفعل!

لاحظ استدارتها واستنتج نيتها فناداها بصوت منخفض فأجابته ب

- سأحضر القهوة

استمر غيابها لربع ساعة أو يزيد ولم يزعجه ذلك فقد كان تحت تأثير مهدئٍ قويّ المفعول!

أما هي كان لابد لها أن ترحل لتستعيد زمام نفسها، «خالد!!» عندما نظرت في عينيه تصورت فيهما لمعانا غريبًا لكنها لم تتنبأ بما هو مقدم عليه. هي على يقين تام بأن خالد لا ينتمي إلى قائمة أولئك الذين يندفعون وراء رغباتهم، لابد أن لديه دافعاً منطقياً لذلك، لكنها بالطبع لن تسأل!

عندما عادت بالقهوة التي انسحبت بحجة إحضارها جلست طويلا أمامه قبل أن يتفوه بحرف ليس خجلاً وبالتأكيد ليس ندماً، هو فقط لم يستعجل تبديد جمال اللحظة التي يعيشها. نظر إليها وخُيل إليه أنها تتصارع مع ذاتها، «هل يا تراها تشعر بي؟ أو ربما تعاني مثل معاناتي؟»

أخيرا قال:

- بدا لي أنك سعيدة، هل كان يومك جميلاً؟

لاحظت «كان» التي استخدمها، ربما لظنه أن تصرفه أزعجها، فأجابت:

- نعم، الحمد لله

- أخبار جديدة؟

- ليس تماماً، لقد حضر لي زملائي اليوم مفاجأة رائعة قالوا أنها بمناسبة خطوبتي وما أسعدني أكثر أن المدير قد حضر بنفسه واعتذر مني عما صدر منه وعلل ذلك بأنه كانت لديه ذلك اليوم مشاكل عائلية. ذلك لا يهم، ما يهم فعلاً أنه لم يصر على رأيه غير السليم بي وبأدائي في العمل. حتى أسامة حضر وهنأني بذوق لم أعهده منه.

- وهل يهمك ذلك؟

قال بنوع من الخشونة مع سعادته لثرثرتها التي عكست مدى سعادتها.

- ماذا .. تقصد؟
- أسامة!
- بالطبع لا يهمني أسامة لكن ما أهتم جداً هو ألا تكون لي عداوات وأنت أكثر من يعرف ما نحن، أو لأكون دقيقة، ما أنا به
- وهذا بالذات ما جئت لأجله

بهت لونها وقالت بتوجس:

- ماذا تعني؟

قام من مكانه وجلس إلى جوارها آخذاً كفها في يديه وسألها:

- ماذا تتوقعين؟
- خالد .. أرجوك!
- لقد حُلت المسألة .. انتهت!
- كيف ذلك؟ ما الذي فعلته؟ ومن هو؟ أريد أن أعرف!
- أنا لم أنسَ المشكلة للحظة واحدة وحاولت بطرق مختلفة وأخيراً عرفت كل التفاصيل وأنهيتها وصدقيني التفاصيل لن تفيدك بقليل أو كثير لذلك أرجو منك أن تعذريني
- خالد هل تمزح؟ كيف أسكت عن معرفة حقيقة أرقتني أيامًا طوال؟!
- مطلقاً لا أمزح، فقط أستطيع تقدير الموقف وأرى أن الأفضل أن

تنسي هذه القصة إلى الأبد دون حتى معرفة تفاصيلها، ألا تثقين بي؟

– أنا .. طبعًا أثق بك! لكن

– لا داعي لِلكن

طال صمتها وهو يقدر صراعها مع ذاتها لذلك قال:

– لن تزيد معرفتك للتفاصيل حياتك سوى تعقيدًا كيان، وأعدكِ أن أخبرك بكل التفاصيل لو أجبرتني الظروف يومًا على ذلك أما الآن فمن الأفضل لنا طي هذه الصفحة إلى الأبد

– كما تريد خالد ولكن لا تنسَ أنني نزلت عند رغبتك لأنني أثق بك!

– أنا لا أنسى أوقاتي معكِ،

قال مبتسمًا ولاحظ علامة استفهام كبيرة ترتسم في عينيها. تود سبر أغواره لتعرف ما الذي يدور في أروقة القلب. مرة أخرى حلّ الصمت ضيفًا بينهما، بددت هي وحشة حضوره بحروف اسمه فقال:

– لبيكِ

«إلى جانب هذا الرجل أشعر أنني أفتقر للكثير من الذوق!»

– شكرًا لك

«وابتسامة بماذا تطمع يا قلب أكثر؟»

أغدق به والدي عليّ إلا بوجودك حتى عندما كنتَ ابن خالتي فقط!

«اثنتان يا قلب، اثنتان! تثق بي وتشعر بالأمان معي. افرح غنِّ!»

وضع قهوته جانبًا واقترب منها أكثر ليرفع بيمينه وجهها فيرى العينين ويضع على صدره يسارها حيث دقات قلبه تصم الإذنين ثم قال:

- أنا .. أحبكِ .. ألا تعلمين؟!

والإجابة كانت آخر شيء توقعه، عينان تتلألأ فيهما الدموع!

- كيان؟

خرج من بين شفتيه اسمها بهمس وجِل

- كنت اعتق..د أن ما دفعك .. للارتب..اط بي هو الوا..جب،

ما إن ترجم عقله الكلمات التي خرجت مع صوتها المبحوح حتى أحاطها بذراعيه وحل رأسها محل يسارها ثم قال:

- أيتها الحمقاء! هل هذا هو ما توصل إليه ذكاؤك؟!

- لا أجمل من أن تُحِب إلا أن تُحَب والمحِب دومًا ناقص الثقة ما لم يملك أدلة منطوقة!

تجاهل كل شيء إلا الكلمات الأولى

- هل يعني هذا أنكِ...

وقبل أن يتم جملته كانت تهز رأسها

- قوليها كيان

شعر بأنفاسها الحارة لكنها أخيرًا رفعت رأسها وأخبرته عيناها قبل أن تنطق شفتاها:

- أحبكً .. جدًا

وكما قال شاعره:

لقد خرجتْ من الشرنقة، فراشةً ترك الحب على أحد جناحيها توقيعاً لا يزول.

تمّتْ

أنا لا أبحث عن جارية أكون سيدها، آمرها فتأتمر وأنهاها فتنتهي. كلّا، مطلقاً!

أنا أبحث عن إنسانة تعرف قيمة الحب وتقدره، عذبة كالنهر أينما حلت تركت خيراً.

مثقفة، اجتماعية، عملية، ذكية، جميلة، ناعمة الحديث. إنسانة تستحق أن تكون رفيقة درب، ولها منّي نفسي وما أملك.

